تاريخ الأَديان

السّنة الثّالثة

قسم العقائد والأديان

جامعة دمشق

كلية الشريعة

قسم العقائد والأديان

تاريخ الأديان

أ . د . يوسف العش

أ . د . محمّد الزُّحيليّ

قام بمراجعته وإعادة تنسيقه

د . حسّان القاري

د . ريمة الصيّاد

جامعة دمشق

١٤٤١ – ١٤٤٢هـ

٢٠٢٠ – ٢٠٢١ م

المحتويات	٥
مقدمة الكتاب	٩
التمهيد : مقدمات عامة عن الدين ١٣ – ٤٠	
الظواهر المرضية غير الدينية	١٥
مفهوم الدين وخصائص الدين الحق	١٨
أولا – تعريف الدين عند الغربيين	١٩
ثانيا – تعريف الدين عند علماء المسلمين	٢١
مفهوم التصديق بالدين	٢٢
خصائص العقيدة الدينية	٢٢
بواعث التدين الفطرية	٢٥
الأدلة المثبتة على الغريزة الدينية	٢٥
الأدلة النافية على الغريزة الدينية	٢٨
الدين والعلم	٣١
أقوال العلماء في الدين	٣٥
حاجة الناس للدين	٣٦
شروط تحقيق الدين لوظيفته	٣٧
نتائج خدمة تركك حاجة الناس إلى الدين	٣٨
الباب الأول : الأديان غير الكتابية ٤١ – ١٠٣	
مدخل الباب	٤٣
الفصل الأول : ديانة المصريين القدماء ودين أخناتون	٤٥
ديانة المصريين القدماء	٤٧
أخناتون	٤٩
الفصل الثاني : أديان الهند الكبرى	٥٣
المدخل	٥٥
أولا – الهندية	٥٦
ثانيا – البراهمية	٥٧

ثالثا – المانوية	٥٩
رابعا – اليزدانية	٦١
خامسا – المزدكية	٦٩
سادسا – ديانة المسيح	٧٣
الفصل الثالث : من ديانات الصين	**٧٥**
اولا – الطاوية	٧٧
ثانيا – الكونفوشية	٨١
الفصل الرابع : من أديان بلاد فارس	**٩٣**
اولا – الزرادشتية	٩٥
ثانيا – المانوية	٩٩
الباب الثاني : الأديان الكتابية أو المنزلة ١٠٥ – ١٧٦	
تمهيد	١٠٧
الدين واحد والشرائع متعددة	١١١
صعوبة البحث في تاريخ الأديان	١١٢
الفصل الأول : الديانة اليهودية	**١١٣**
مدخل	١١٥
اولا – التاريخ اليهودي	١١٦
ثانيا – الكتب المقدسة لليهود	١١٨
ثالثا – أنبياء اليهود	١٢١
رابعا – الزنادقة	١٢٤
خامسا – الشريعة واليهود	١٢٥
سادسا – فرق اليهودية المعاصرة	١٢٦
سابعا – الحركة الصهيونية	١٢٧
الفصل الثاني : الديانة النصرانية	**١٢٩**
مدخل	١٣١
اولا – نشأة النصرانية وكيفية تشكل عقيدتها	١٣١

تعاليم السيد المسيح	١٣٢
موقف اليهود من رسالة المسيح	١٣٤
الإنجيل والأناجيل	١٣٦
العهد الجديد	١٣٨
تكوين العقيدة المسيحية	١٤١
الصراع مع الدولة الرومانية	١٤٩
مقارنة بين البولسية والنصرانية (جداول)	١٥١
مقارنة بين البولسية والنصرانية (جداول)	١٥٨
ثالثاً – النصرانية في القرون الوسطى وظهور البروتستانتية	١٦٥
الأريوسية	١٦٥
الوصايتية	١٦٦
النسطورية	١٦٧
الأرثوذكسية	١٦٨
فروق بين الكنيستين	١٦٩
سكولاستيك (الفلسفة المدرسية في القرون الوسطى)	١٧٠
رابعاً – المسيحية في العصور الأخيرة وفرقها الإصلاحية	١٧١
الأساس الكتابي لفكرة الإصلاح	١٧١
حركة (مارتن لوثر) الإصلاحية	١٧٢
حركة (جون كالفن)	١٧٣
البروتستانت المتحدون	١٧٣
البروتستانت (يونيتاريون)	١٧٤
توحيد الكنيسة	١٧٥
الباب الثالث : الفرق الإسلامية ١٧٧ – ٢٦٧	
الفصل الأول : نشأة علم الكلام والمذاهب التوحيدية في الإسلام	١٧٩
أولا – موقع هذه الفرق من الإسلام	١٧٩
ثانيا – أسماء هذه الفرق	١٨٣

مسلك الإسلام في مواجهة التيارات الفكرية على اختلافها	١٨٤
تعريف علم الكلام وموضوعه	١٩٢
نشأة الفرق الإسلامية	١٩٧
الفصل الثاني : دراسة أهم الفرق الإسلامية	٢٠١
أولا – الفرق السياسية	٢٠٣
الشيعة	٢٠٤
الخوارج	٢٠٧
ثانيا – المذاهب الاعتقادية	٢١١
تصور عام يكفي لنشأة المذاهب الاعتقادية وتوالدها	٢١٢
المعتزلة	٢١٧
أهم آراء المعتزلة (الأصول الخمسة)	٢١٨
منهج المعتزلة في البحث والاستدلال	٢٣٥
المرجئة	٢٣٨
نقد عقيدة الإرجاء	٢٤١
دوافع عقيدة الإرجاء	٢٤٣
الأشاعرة	٢٤٦
لم يكن الأشعري مبدع مذهب بل كان نصير مذهب أهل السنة واجتماعه	٢٤٩
عقيدة الإمام الأشعري	٢٥١
مسلك الإمام الأشعري في الاستدلال	٢٥٦
الماتريدية	٢٥٧
منهجهما إلى مذهب واحد	٢٥٨
أهم المسائل الخلافية بين الأشعرية والماتريدية	٢٥٩
خاتمة لهذا الباب: فرق خارجة عن الملة	٢٦٥
الذهبية والبهائية	٢٦٥
القاديانية	٢٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا رسول الله، ونؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونؤمن بالقدر خيره وشره.

وبعد: فإن مقرر (الفرق والأديان) من المقررات الضرورية، لأنه يفتح للطالب نافذة على مجموعة من المعتقدات المخالفة بأنواعها، فمنها أقوال أصحاب الفرق التي تفرعت عن جسم سواد الأمة الإسلامية قديما وحديثا، إما اجتهادا وانحيازا، وإما شذوذا وخروقا، ومنها مقولات الأديان الموجودة اليوم، والقائمة في العالم.

فإلى جانب معرفة نشأة علم الكلام، ونشأة الفرق الإسلامية ومقولاتها يستطيع الباحث عن طريق دراسة هذا المقرر أن يتعرف على مبادئ الأديان المنتشرة في الأرض، ليقارن بينها، ويطلع على عقائدها ونظامها وكهنوتها ومقدساتها وتقاليدها وعاداتها، ليكون على محجة بيضاء ورسوخ يقين في اتباعه الدين الحق الذي يقتنع به، ويدين الله تعالى به، ويلتزم به في حياته وسلوكه، كما أن عنده القدرة لعقلي صورة واقعية على بعض جوانب الشعوب، وما يدور في خلدها من قيم وأفكار، تمتد في جذورها إلى التاريخ السحيق، تلقي بظلالها وآثارها على عادات المجتمع وتقاليده وأعرافه، ولعل لنا الطقوس الدينية الغريبة التي يمارس بها شعب

عن آخر. وكما يزوّد هذا المقرّر الباحث بالمعلومات التي تُثري معرفته، فإنه كذلك يبعث في نفسه من بَيْع سبيل الحقّ شعورَ الثقة والغبطة والعزّة، ويحمله على تقدير ما لديه والتمسّك به، ويزوّد الداعيةَ إلى سبيل الحقّ بالتجربة التي تعينه على إيصال دعوته إلى الآخرين بأسلوب الحكمة إذ يراعي ما عند كلّ صاحب اعتقاد فيحاورهُ بما يناسبه.

● **خطّة الكتاب**: كان الأستاذ الدكتور يوسف العش رحمه الله تعالى أوّل من تولّى تدريس مادّة (الفرق وتاريخ الأديان) في كلّية الشريعة، وألقى فيها محاضرات قيّمة، وكان الطلّاب وقتها يتلقّفون عباراته ويحملونها بآذان صاغية، ويدوّنونها، إلى أنْ جمع نفيضٌ من الطلّاب هذه المحاضرات، ونقلت بواسطة المكتاب، لتكون المذكّرات المقرّرة للتدريس.

وبقيت هذه المذكّرات هي مادّة الدراسة والتدريس طوال هذه الفترة، وبعد وفاة مؤلّفها رحمه الله، جاءت خطّة كلّية الشريعة، ومنحت الاستقلال لقسم (تاريخ الأديان) وصار مقرّرًا مستقلًا، ووُضعت له المقرّرات المذكورة سابقًا.

ولكن مذكّرات الدكتور يوسف العش في (تاريخ الأديان) لم تكن لتغطّي كامل مقرّرات المنهاج الجديد، فتمّ استكمال مفردات المقرر وفق الخطّة الدراسية، فأضاف الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي بعض النصوص المنتخبة من المراجع، لتوضيح الصورة، واستكمال المعلومات عن هذه الأديان. فضمّ بعضَ النصوص المقتبسة من كتابي الأستاذ الشيخ محمّد أبو زهرة رحمه الله تعالى (محاضرات في النصرانيّة)، و(مقارنات الأديان - الديانات القديمة)، وكتب أخرى تناولت دراسة الأديان.

وفي الخطّة الحديثة لمقررات كلّية الشريعة أُعيد الدمج بين موضوعي الفرق والأديان في مقرّر واحد، ولأجل ذلك عمدنا إلى كتاب الأستاذ الدكتور محمد

سعيد رمضان البوطي رحمه الله: (العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر) - وكان بكامله مقررًا على طلاب السنة الثالثة -، فأخذ منه ما كان يتعلق بالفرق الإسلامية وضمّ إلى مفردات تاريخ الأديان، ثم قمت بمراجعة ذلك كلّه وتهذيبه وإعادة ترتيبه وتدقيق صياغته، مع متابعة النُّقول من مصادرها، وتصحيح الأخطاء، وتقويم العبارات والتصرُّف ببعض المواضع، وصولًا إلى تذليل مادّة الكتاب لتتناسب مع الخطّة الدراسيّة الجديدة. فجاء الكتابُ محتويًا على تمهيد وثلاثة أبواب، على النحو الآتي:

- **التمهيد**: مُقدّماتٌ عامّةٌ عن الدِّين.
- **البابُ الأوّل: الأديانُ غيرُ السّماويّة** وهي: ديانة المصريين القدماء (دين أخناتون)، أديان بلاد فارس (الزّرادشتيّة، المانوية)، أديان الهند الكُبرى، الدّيانات الصّينيّة (الطاوية، والكونفوشيوسيّة).
- البابُ الثّاني: **الأديان الكتابيّة أو (الرّسالات السّماويّة المنزّلة)**: اليهوديّة والنّصرانيّة.
- **الباب الثّالث: الفرق الإسلامية**؛ وقد شمل الحديث عن نشأة علم الكلام والمذاهب التّوحيديّة في الإسلام، وعلاقة ذلك بالتيارات الفكريّة القديمة، ثمّ دراسة أهمّ الفرق الإسلاميّة، وبيان ما انفردت به كلٌّ منها من اجتهادات وآراء.

نسأل الله تعالى أن يُعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يهدينا سبيل الرّشاد، إنّه نِعْمَ المولى، ونِعْمَ المُجيب.

والحمدُ لله ربّ العالمين.

التَّمهيد

مقدّمات عامَّةٌ عن الدِّين

- الظواهر المرَضيَّة للدين عبر التاريخ
- مفهوم الدِّين وخصائص الدِّين الحق
- بواعث التدين الفطرية
- الدين والعلم
- أقوال العلماء في الدين
- حاجة الناس للدين

الظَّواهر المَرَضيَّة للدِّين عبر التَّاريخ

وجد الدِّينُ في هذه الدُّنيا منذُ أوَّل البشريَّة في الوقت الذي خرج سيِّدُنا آدمُ من الجنَّة، وحطَّ قدمهُ على الأرض، وخاطبهُ ربُّه بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. والتَّديُّن فطرةٌ ذاتيَّةٌ في النَّفس الإنسانيَّة - كما سنرى - ولا يُمكنُ لها الغيرُ السَّعيدُ والرَّاحةُ والطُّمأنينةُ والسَّعادةُ إلا تحت ظلِّه.

واستمرَّ الدِّينُ يُرافقُ البشريَّة في أطوار حياتها، ولم يخلُ مُجتمعٌ ولا أمَّةٌ من ظاهرة التَّديُّن، ولم يمرَّ زمنٌ أو عصرٌ بدون التزام بالدِّين، ولم تقُمْ حضارةٌ ولا أُسِّستْ مدنيَّةٌ، ولا نهضتْ أمَّةٌ إلا من وراء عقيدة دينيَّة.

وسيبقى الدِّينُ مُرافقا للبشريَّة إلى يوم الدِّين، وإلى أنْ تفنى البشريَّةُ، وتقومُ السَّاعةُ، ويرثُ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها، ولكنَّ الدِّينَ الحقَّ الذي أرادهُ اللهُ تعالى لصلاح عباده في الأرض، والذي يمتدُّ من أوَّل البشريَّة، وينبعُ من النَّفس والفطرة، وسيظلُّ حتَّى النِّهاية.

هذا الدِّينُ لم يبقَ على نقاوته ونقائه، ولم يسلمْ على حاله، وإنَّما عرضتْ لهُ ظواهرُ مرضيَّةٌ كثيرةٌ، غيَّرتْ جوهرهُ، وغكَّرتْ صفْوهُ، وحالتْ دون تحقيق الهدف الأصليِّ منهُ، وتعدَّدتْ هذه الظَّواهرُ المَرَضيَّةُ هنا وهناك، على مُستوى الأفراد والمُجتمع والدُّول، والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ في التَّاريخ القديم والحديث، ومن أهمِّ هذه الظَّواهر المَرَضيَّة للدِّين عبر التَّاريخ ما يلي:

١ - **ضعفُ الإيمان**: تعرَّضَ التَّديُّنُ الخفيفُ للوهن والضَّعف في النُّفوس،

وتحركت النزعة المادية في الإنسان، فغلبته شهواته، وطغى الشيطان على أتباعه من الإنس والجن للتهرب من أحكام الدين، والتفلت من زمامه، والتحايل عليه، والتلاعب على بعض حوانبه، فتعرض الدين للتحريف والتبديل، أو التمزيق أحياناً حيث يؤخذ بعضه ويترك بعضه، وكانت النتيجة سوء الأحوال الخاصة والعامة تحت ستار الدين، وانتشار الفساد والضلال في الفرد والمجتمع، وبالتالي فقدت المقاصد الأساسية للدين، وتعرضت المصالح الحقيقية للضياع.

٢ - **المتاجرة بالدين**: قام بعض حملة الدين باستغلاله والتستر وراءه لتحقيق أغراضهم الشخصية، ومطامعهم الذاتية، وميولهم الدنيئة، وشهواتهم الحيوانية، واتخذوا الدين سلعة للمتاجرة والمساومة لسلب خيرات الناس، وابتزاز أموالهم، والوصول باسم الدين إلى المناصب والمراكز، والتمتع بشهوة السلطة، وفرض النفوذ على الآخرين، فكانوا أسوأ مثل لرجال الدين.

٣ - **إضفاء الصفة الدينية على الفلسفة والآراء**: ظهر في مناطق متعددة من أرجاء المعمورة، وفي أحقاب زمنية مختلفة، ظهر عددٌ من الفلاسفة والمفكرين، وأراد هؤلاء الفلاسفة أن ينشروا فلسفتهم وأفكارهم بين الناس، فاستغلوا مكانة الدين في النفوس، وأضفوا على فلسفتهم وأفكارهم الصفة الدينية، والبسوها رداء الدين، ليضمنوا الاقتناع بها بسرعة في النفوس وتحقيقوا انتشارها، وصارت هذه الفلسفات أديانا في التاريخ والمجتمع، ومن هنا ظهرت الأديان الوضعية التي اخترعها الناس افتراء وكذبا وزورا على رب العالمين، وكانت النتيجة أن تعددت الأديان، واختلط الحابل بالنابل، وظهرت الأديان السماوية بجانب الأديان الأرضية، والأديان المنزلة بإزاء الأديان الوضعية، والأديان الصحيحة معاصرة للأديان الفاسدة المزورة.

٤ - **الجهل بالدين**: وكان أكبر عون على معاداة الأديان الصحيحة الجهل

بها، لأنّ الإنسان عدوّ ما يجهل. وظهرت جماعاتٌ كثيرة تجهل الدّين السّليم، لكنّها لم تتخلّ عن التّمسّك به فوجدت حظّها بالتّقاليد المتوارثة، والعادات السّيّئة، والأعراف الباطلة التي صارت في نظر النّاس دينا يتقلونه من الأجداد إلى الآباء، ثمّ يتوارثه الأبناء والأحفاد، حتّى انقلبت حياتهم (الدّنيّة) إلى وثنيّة سوداء، وشرك وضيع، وقد ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا، أولئك هم الأخسرون أعمالا.

٥ – **التّبشير والاستعمار**: اتّخذت بعض الدّول في العصور الحديثة سياسة مزدوجة نحو الدّين، فأعلنت الحرب عليه في الدّاخل، وقرّرت التّخلّص منه، وإغلاق منافذه، ومنع تعليمه، واضطهاد رجاله، وتشويه سمعته، وإلحاق الشّبه والأباطيل والمساوئ فيه، بينما بثّت الدّعوة إليه خارج البلاد، وأرسلت البعثات التّبشيريّة في شرق الأرض وغربها، وأمدّتهم بكلّ ما يحتاجونه، فقام هؤلاء بالتّبشير بالدّين من جهة، وإماطة العقبات أمام الجيوش الزّاحفة للاستعمار العسكريّ والسّياسيّ والفكريّ والاقتصاديّ من جهة أخرى.

٦ – **الإلحاد والعلمانيّة**: ظهرت في العصور الحديثة دعواتٌ إلحاديّة كثيرة، ونجحت بعضُ هذه الأفكار الإلحاديّة في استلام السّلطة وإقامة الدّول على أساس الإلحاد والعلمانيّة، وأخذت على نفسها محاربة الأديان، وكوّنت عن الأديان فكرة قاتمة سوداء، مستغلّة التّاريخ الأسود عن بعض جوانب التّاريخ للأديان، فرسمت للدّين صورة بشعة لبعض الأفكار الدّينيّة المحرّفة، صورة مضطربة مصطنعا، نقلوها عن كتب الشّيطانيّة، وقرنت بهذه الصّورة صورة السّاعة برّاقة، تتجلّى في التّقدّم العلميّ ومعطيات الحضارة والإنتاج الصّناعيّ الحديث، والتّقنيّة الفنيّة، والمكتشفات العظيمة، والاختراعات المتلاحقة، والوسائل المتعدّدة التي يستخرها الإنسان في حياته ومواصلاته، وزيّن عنه متاعب الماضي في

مُختلف اتجاهات الحياة، ممّا يخلب الأنظار، ويشغل الفكر، ويحجب كثيراً من البسطاء عن كشف الحقيقة، والتعمّق في النظرة، مما رسّخ في نفوس بعض الناس أنّ الدّين (موضة) قديمة، قد ولّى زمانها، ولم يبق لها فائدة، وليس للإنسان حاجة إليها، ويمكنُ بسهولة ويُسر الاستغناء عن الدّين وفصله عن الدّولة، وإبعاده عن مجال الحياة، وتابعوا التّعلّق فقالوا: بين الدّين والتّدين ظاهرة سيّئة وعلامة على التخلّف وهو سبب البلاء والتأخر والجمود في كثير من البلدان، واستدلّوا على ذلك بأنّهم أصبحوا في عصر المدنيّة والحضارة، وأن تعلّم أساس كلّ شيء، وبتحقّق للإنسانيّة كلّ شيء، ونحن - بلْ يجب أن نحن - فخار الدّين.

مفهوم الدّين وخصائص الدّين الحقّ

نحاول أنْ نبيّن المفهوم الصحيح للدّين، ونميّزه عن المفهوم الخطأ الشائع بين النّاس، لتكون دراستنا مبنيّة على أساس سليم ومعنى دقيق، ونقدّم لذلك بالتعريف اللّغويّ:

تعريف الدّين لغة:

تعدّدت معاني الدّين في اللّغة، ونرى أن هذه المعاني تنحصر في إيجاد علاقة بين طرفين:

الطرف الأوّل يتمتّع بالسّلطان والقوّة والجبروت والحكم وحقّ القهر والمحاسبة والمكافأة والمجازاة.

والطرف الثاني يقف في الجانب الآخر ويتصف بالخضوع والطّاعة والذّل

والاستكانة والعبادة والخوع.

والعلاقة بين الطرفين هي الدِّينُ أو المنهج والطريقة التي تحدد علاقة الأول بالثاني وبالعكس[1].

وكلمةُ تَدَيَّن لها ثلاثة جوانب، تدلُّ على العلاقة السابقة التي أشرنا إليها[2]، وهي:

١ – دانه ديناً: أي ملكه وحكمه وقهره وأذله واستعبده، وحاسبه وكافأه. فالفعل المتعدّي بنفسه يمثل الطرف الأول الذي يتمتع بمعنى الملك والتصرف.

٢ – دان له: أي أطاعه وخضع له أو ذل أو استكان أو عبد. فالفعل المتعدّي باللام يمثل الطرف الثاني المتصف بالخضوع والطاعة.

٣ – دان به، أو دان بالشيء: أي اتخذه دينا ومذهبا، أي اعتقده أو اعتاده، ودان بالإسلام دينا أي تعبّد به وتديّن، وهو الدِّينُ أو الملّة. فالفعل المتعدي بالباء يمثل الطريقة أو المذهب.

---

(١) اقرب الأمثلة لتوضيح هذه المعنى وبيان هذه العلاقة كلمة:

(الدين) فيه يقع بها قرار علاقة بين طرفين. أحدهما دائن، وله حق الطاعة، والآخر مدين، وعليه الجزاء الدفع أو واجب الأداء. الأول يضاف، والثاني مضاف، ومن مضروب هو الدين. والعرب قد بنى بعض الدائن والدين في المكيل والعدد، واشتقت من الكيلة والصوغ. (الفراق بين الدين – بالكسر –، والدين – بالفتح – أن أحدهما يحصل في الأغلب التزاما بالذمة، والآخر التزاما بالعين).

وعلى كلمة (البيع) بأنها تدل على علاقة بين طرفين هما البائع والمشتري وعلى العلاقة هو البيع وبعضه بيع.

(٢) انظر المعجم: المعجم المفصل: ٤/٢٢٥. المصباح المنير: ١/ ٢٧٩. مختار الصحاح: ٢٠٨. الدين للدكتور محمد عبد الله دراز: ٢٦. والنهاية، لابن الأثير: ١٤٨/٢. المصطلحات الأربعة في القرآن، لأبي الأعلى المودودي: ١٠٦.

تعريف الدين اصطلاحاً:

أولاً - عند الغربيين:

ظهرت تعريفات كثيرة للدين في الغرب، وكانت تنطلق كلها من نظرتهم إلى الكنيسة الكاثوليكية وتاريخها في العصور الوسطى، وموقفها من الملوك والحكام والإقطاع والرق والحروب والحجر على العلم والاكتشافات، ثم موقف الثورة الفرنسية وما تبعها من الكنيسة ورجال الدين والأفكار الدينية، ثم نبني العلمانية ومحاربة الدين وطرد رجال الدين الذين كانوا يمثلون السلطة الروحية والمادية معاً، ويوجهون السياسة والتشريع والقضاء في العهد السابق[1]. ومن خلال هذه الصورة ظهرت التعريفات المتباينة عن الدين، وهي تعريفات كثيرة جداً[2] نقتصر على ثلاثة نماذج منها:

١- يقول جويوه في كتاب (لا دينية في المستقبل): (الديانة: هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية، والشعور الديني هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى تركزها الإنسان البدائي في الكون).

فهذا التعريف يمثل النموذج الذي ينكر جوهر الدين في وجود الخالق المبدع، أو الإله المعبود، ويتجه إلى الاستخفاف والاستهزاء والسخرية من الدين، وأنه تصور مثالي للإنسانية، أو اختراع لمشيئات من العقل البدائي.

٢- يقول شلاير ماخر في (مقالات عن الديانة): (قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة لقوة قاهرة).

وهذا تفسير نفسي محض، يصور النقص في الذات الإنسانية وأنها تتطلع إلى

---

(١) انظر: دراسات في النفس الانسانية: ٢٢٨، الدين والحضارة الإنسانية: ١٠، الدين: ٢٠.

(٢) انظر هذه التعريفات في كتاب الدين، للدين ٢٩ وما بعدها.

الكمال، وتذلك فإنه يعرّف جانباً بسيطاً من الدّين، ولكنّه ينكر لوجود المعبود، ويتجاهل حقيقة الدّين وأثره في النّفوس والعقول، ودوره في التّشريع والأخلاق.

٣- يقول الأب شائل في كتاب (قانون الإنسانية): (الدّينُ هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق: واجبات الإنسان نحو الله، واجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه).

وهو أرقى تعريف للدّين عند علماء الغرب، وهو يمثّل طبيعة التّصورِ الّذي بعد انحسار الكنيسة عن الحياة والسّلطة، وتحدّد مهمتها في أماكن العبادة، وأنّ وظيفتها تنحصر في صلة الإنسان بربّه من الناحية الرّوحيّة، وصلته بالمجتمع من الناحية الخُلقية، أمّا ما يتعلق بالتشريع والسياسة فلا علاقة للدين بذلك.

ثانياً - عند علماء المسلمين:

اشتهر على لسان علماء المسلمين تعريف الدّين بأنه: (وضعٌ إلهيٌّ يُرشدُ إلى الحقّ في الاعتقادات، وإلى الخيرِ في السّلوك والمعاملات).

ويقولون في تعريف آخر: (وضعٌ إلهيٌّ، سائقٌ لذوي العقول السّليمة باختيارهم إلى الصّلاح في الحال، والفلاح في المآل).

ويصرح التّعريفُ الإسلاميّ بثلاثة أمور جوهرية، وهي:

١- أنّ الدّين وضع إلهي، وليس من بحاء النّفس، أو تخيل العقل، أو تنظيم الإنسان، فالله سبحانه وتعالى أنزل الدّين الحنيف، وأوحى بعبادته وتعليمه وقيمه، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وأنّ الله سبحانه الّذي خلق الإنسان واختاره خليفة في الأرض لم يخلقه عبثا، ولم يتركه سدى.

٢- أنّ التّعريفَ ينصُّ على أنّ الدّين عقيدة وشريعة، أو عقيدة ونظام في

الحياة. فهو ليس مجرّد اعتقاد، بل هو الاعتقاد الحقّ، والإيمان الصّحيح الذي لا يشوبه شيء. وهو ليس مجرّد شريعة ونظام فحسب، بل هو نظام ربّانيّ، وشريعة إلهيّة لضمان الفوز والفلاح في الدّنيا والآخرة.

٣- بيان الربط بين العقيدة والعقل، وأنّ الدّين متّفقٌ تماماً مع العقل السّليم، وأنّه لا مُنافاة ولا مناقضة بين الدّين والعقل.

* المفهوم الصّحيح للدّين:

ومن هُنا نصلُ إلى المفهوم الصّحيح للدّين الذي استعمله القرآن الكريم بالإضافة لاستعماله للدّين بالمعاني اللّغويّة السابقة. فالقرآن الكريم استعمل الدّين بمعنى عام شامل جامع، ويريد به النّظام الكامل، نظام الحياة الذي يُذْعنُ فيه المرءُ لسُلْطة عُليا، ثمّ يقبل إطاعته وانباعه، ويتقيّد في حياته بحدوده وقواعده وقوانينه، ويرجو في طاعته العزّ والفوز بالدّرجات العليا وحسن الجزاء، ويخشى في عصيانه الذّلة والخزي وسوء العقاب[1].

وقد وردت آياتٌ كثيرةٌ تستعملُ كلمة (الدّين) بهذا المعنى العام الكامل الشامل لجميع نواحي الحياة الاعتقاديّة والفكريّة والخلقيّة والعمليّة. نذكرُ بعضها:

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

---

(١) مصطلحات الأربعة في القرآن: ١٢٦.

خصائص العقيدة الدينية:

إنَّ الميزات التي تجعلُ من الخضوع ديناً أمْ لا، تنقسمُ باختصار إلى قسمين:

أ - صفات الشيء الذي يقدّسه المتدين. ب - العنصر الذاتي النفسي[1].

ويمكننا تفصيل ذلك بشرح الخصائص المهمة للعقيدة الدينية، وهي:

١- إن الإنسان يقدّس الشرف والعرض والحرية والكرامة، ويخضع لقوانين الكون وسننه الثابتة، ولكن هذه الأمور لا تسمى دينا، لأنها معان عقلية مجرّدة وتصورات شائعة مبهمة، أمّا المتدين فإنه يهدف إلى تقديس حقيقة خارجة عنْ نطاق الأذهان، وإن كانت لا تغيب عنها الأذهان أو لا نستطيع تصوّرها، فالتقديسُ الدينيُ يتجه إلى ذات مستقلة قائمة بنفسها، وتكون العقيدة الدينية صلة بيْنَ ذات وذات، لا بيْنَ ذات وفكرة مجرّدة.

٢- إن الذات التي يقدّسها المتدين شيءٌ غيبيٌ لا يحيطُ بحقيقة كنهه عقل الإنسان ووجدانه، وإن أدرك وجوده وعرف شيئاً من صفاته.

٣- إنَّ الذّات المقدّسة ذات قوّة فعالة ومؤثرة في غيرها، كما أنها ذات قوّة عاقلة تدرك أهدافها، وتتجه بالفعل إلى تحقيق أغراضها بمحض إرادتها ومشيئتها.

٤- إن هذه القوّة العاقلة المدبرة لها اتصالٌ معنويٌ بنفس المتدين وبالناس جميعا، وليست بعيدة عنهم أو منقطعة عنْ حياتهم، بلْ ترعى شؤونهم، وترعى آمالهم وآلامهم، وتسمع دعاءهم ونجواهم، وتكشف السّوء عنهم متى شاءت ذلك، ولها عناية مستمرّة بشؤون العالم الذي تدبرُه.

---

(١) راجع: دين، للدكتور محمد عبد الله دراز: ٣٦ وما بعدها، ودراسات في النفس الانسانية: ٢٠٤.

٥- إن هذه القوة المعبودة هي قوةٌ علويةٌ سبحانيةٌ قاهرةٌ، يخضع لها المتدينُ، ويقف منها العابد موقف الامل المتواضع، يطلب منها الرضى، ويشفق من غضبها وسخطها.

٦- العنصر الذاتي النفسي: ويضاف إلى الخصائص السابقة في موضوع العقيدة الدينية عنصر ذاتيٌ نفسيٌ يتميز به المتدينُ عنْ غيره، وهو الخضوع الشعوريّ الاختياريّ للمعبود. فالمتدينُ يقدس ويمجد معبوده عنْ طواعية واختيار، لأنه يستحقُ ذلك، ويقوم بالعبادة والتعظيم متى كان مقتنعا بدون إكراه، ولذلك بيّن القرآن الكريم أنّ الصلاة كبيرة وشاقة وصعبة إلا على المتقين، قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

٧- وكذا فإنّ خضوع المتدينِ لمعبوده يشعره بالتوقير في القلب، ويفتح أمامه الآفاق، وينزلُ عنْ ظهره الأثقال، ويجعله يتطلّع باستمرار إلى الأمل وتفريج الكروب دون أنْ ينسرّب إلى نفسه اليأس أوْ يفرض عليه الكبت، أوْ يسدّ أمامه الأمل، أوْ يحدّ من عمله، بلْ يكونُ المتدينُ دائما بيْن الرّغبة والرّهبة، أوْ بيْن الأمل والحذر والرّجاء.

هذه الصفاتُ لمثل خصائص العقيدة الدينية، ولميزها عنْ غيرها من المعتقد والمبادئ والأفكار. ولذلك فقد لخص الدكتور دراز مفهوم الدّين الصحيح بقوله:

(التديّنُ هو الاعتقادُ بوجود ذات - أوْ ذوات - غيبيّة علويّة، لها شعورٌ واختيارٌ، ولها تصرّفٌ وتدبيرٌ للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقادٌ من شأنه أنْ ينبعث على مناجاة تلك الذّات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد).

ويقولُ: (وبعبارة موجزة: هو الإيمانُ بذات إلهيّة جديرة بالعبادة،

هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية، بمعنى التدين. أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول: هو جملة النواميس الفطرية التي ترسم طريق عبادتهم)[1].

بواعث التَّدَيُّن الفطريَّة

الأدلة الفلسفية على الغريزة الدينية:

ويستدل علماء الأديان والاجتماع والفلسفة على كون التدين فطرة بالاستقراء والاستنتاج. فلنكشف عن بواعث التدين الفطرية. ويمكن إجمالها بما يلي:

١ - بما أن نزعة التدين ظهرت من غريزة التطلع إلى الغيب ومحاولة معرفة الحقيقة الرابضة وراءه، وعدم الوقوف عند حقيقة الواقع الحسي، والعودة إلى التأمل في المسائل الآتية:

لم خلق الإنسان؟ ومن خلقه؟

ولم خلق الكون؟ ومن؟ ومن خلقه؟

وما هو مبدأ الإنسان؟ وما هي غايته ومعاده؟ وإلى أين نسير؟

وما هي نهاية الكون؟

وما هو مصير الإنسان؟ وماذا بعد الموت؟

وغير ذلك من الأسئلة التي تدفع الإنسان إلى الإيمان بالله، وإلى التنظر والتبحث والتسمع والعلم والاكتشاف. وهذا التطلع والتأمل في هذه القضايا الغيبية

---

(١) التدين: ص ٤٩. وانظر دراسات في النفس الانسانية: ٢٠٤.

كانت ولا زالت وستبقى الشُّغل الشاغل للإنسان، ويريدُ الوصولَ إلى اليقين أمامَ مُشكلات الكون الكُبرى، مهما تقدمت به المدنيّة، وتعدّدت الاكتشافات، وترقّى العلم، لأنّ العلمَ عاجزٌ قطعًا عن الإجابة على هذه الأسئلة، وأنّهُ مُقيّدٌ بكشف نواميس الكون دون أنْ يغيّر منها شيئًا، وأنّ مجاله مُحدّدٌ في النواحي المادّية التي وضعت تحت حواسّه، كما سنرى بعدُ قليل.

٢ - عجزُ الإنسان وحاجته إلى قوّة جبّارة تُنقذُه من المهالك وتعينُه وقت الشدّة، وتستجيبُ بها وقت الضيق، فتنجده وتفرجه من المأزق، وتُقدّمُ له العون عند الحاجة، وهذا العجزُ موجودٌ في كلّ نفس، ويلمسُه الإنسانُ في نفسه، ويسمعُه من غيره.

سأل رجلٌ الإمامَ جعفر الصادق عن الله فقال: ألمْ تركب البحر؟ قال: بلى، قال: فهلْ حدّث لك مرّة أنْ هاجت بكم الريحُ عاصفة؟ قال: نعم، قال: وانقطع أملُك من الملاحين والنجاة؟ قال: نعم، قال: فهلْ خطر في بالك وانقدح في نفسك أنّ هناك مَنْ يستطيعُ أنْ ينجيك بِنَ شاء؟ قال: نعم، قال: فذلك هو الله.

هذا الشعورُ النفسيُّ بوجود المنقذ من الهلاك، والمنجي من الهمّ والغمّ والحزن والكرب، إمّا أنْ يبقى مع الإنسان فيكون مؤمنًا، وإمّا أنْ ينكرَ له، ويجحد هذا الفضل، ويُعرضَ عن ربّه، فيكون كافرًا وملحدًا أوْ ضالًا، وقد صوّر القرآنُ الكريمُ في آيات كثيرة، ومواطن مختلفة هذه النماذج من النفوس، منها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٢ - ٦٣].

٣ - ومن دوافع التفطّرة إلى التديّن الإحساسُ بالرهبة أمامَ هذا الكون العظيم

وما يجري فيه مما يحرك أحاسيس الإنسان، ويوقظ مداركه، ويدفع عقله - بالغريزة والفطرة - ليبحث عن خالق الكون، فيأنس به، وتطمئن قلبه عنده، ويهدأ روعه وخوفه، ويعقد أواصر التقرب له، ثم يقدم الطاعة والعبادة لعظمته، وهذا هو الدين.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٢ - ٢٣].

٤ - من الدوافع الفطرية للتدين الموت: الذي يزرع الأحياء، ويهزمهم إلى الأعماق[١]، ويبثه فيهم القوى المعطلة، والأجهزة المتجمدة، - والإحساس المخدر، ويزيل من أمامهم الحجب، ويكشف لهم الطريق، ويذهب الغبش عن العين، فيصحو الإنسان لنفسه، ويتفكر في حياته، ويبحث عن الهدف من الحياة، ويستطلع ما بعد الموت، ويدرك لماذا قيمة الحياة الآخرة، وتفاهة الدنيا، وأنها متاع قليل، وأن الكمال الحقيقي الذي يتفق مع تكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات أن تكون نفسه وروحه باقية بعد الموت، وأن لها حياة أخرى بعد هذه الحياة يلقى فيها الأحبة والخلان، وفيها يحاسب كل إنسان على عمله، لتتحقق العدالة المطلقة، فيلقى كل إنسان جزاء عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، يقول الإمام علي كرم الله وجهه: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[٢] ونفس عمر رضي الله عنه على خالصه: «كفى بالموت واعظاً لك يا عمر»[٣].

---

(١) راجع ما كتبت في النفس الإنسانية: ٢٢١.

(٢) نهج البلاغة: ٢/٢٢٠.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٤٤/٢٦٠.

٥ – التأمل في نظام الكون وأجزائه والتفكر في المخلوقات، بدءا من الإنسان وتكوينه وأعضائه وأجهزته، وليس انتهاء بالنجوم والمجرات وطبقات الأرض... وكلما تقدم العلم وقف العقلاء مبهورين من عظمة هذا الكون ونظامه الدقيق، ليقفوا بخشوع وجلال وذلٍّ أمام القدرة الخالقة المكونة. وهذا انتقال من المخلوق إلى الخالق، ومن الطبيعة إلى مكونها وباريها، ومن المسبَّب إلى السبب، ومن المصنوع إلى الصانع، مما يقتضيه العقل ويسوق إليه التفكر في أدق الأمور وأجلها، وأحقر الأشياء وأعظمها، وهو ما نطق به تلك الأعرابيُّ بفطرته السليمة فقال: البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماءٌ ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلان على اللطيف الخبير؟

والقرآن الكريم عرض جولات كثيرة جدا مع هذا الباعث الفطري للتدبر، ليحث العقل على التأمل بالكون والتدبر في المخلوقات والبحث عن نظامها العجيب، ليقر من في نفسه الإيمان والعقيدة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢٢].

الأدلة الشرعية على الغريزة الدينية:

ويمكننا أن نستدل على غريزة التدين في الإنسان، وأنها مفطورة في نفسه وتكوينه بالدليل النقلي الصريح المباشر من كتاب الله تعالى، في الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان وفطرته وجبلته، وما رافق ذلك من وجود التدين في النفس البشرية.

١ – قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ

فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. . .) [البقرة: ٣٠ – ٣٣]، ثُمَّ يقول تعالى: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * [البقرة: ٣٨].

٢ – قال تعالى: * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * [طه: ١٢٣ – ١٢٥]؛ فهذه النصوص تصرّح بأنّ الإنسان مخلوقة لله في أرضه، وأنّ الهداية والتربية والإيمان رافقه منذ هبوطه إلى الأرض.

٣ – قال تعالى: * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * [سورة ص: ٧١ – ٧٢]، وهذا النصّ يصرّح بطبيعة الإنسان وأصل خلقه وجبلّته، وأنّه من طينٍ، ممزوج بروح الله تعالى، وأنّ الجسد لا ينفصل عن الروح، وأنّ كلّ محاولة للفصل أو بذر الشقاق بينهما مذمومة والخوف في السلوك، وعاهة في التكوين، كما أنّ كلّ عنصر له متطلّبات، وخلقت له ميول للمحافظة عليه، فالطعام والشراب والجنس للمحافظة على الجسد، والتديّن للمحافظة على الروح.

٤ – قال الله تعالى: * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا * [الأعراف: ١٧٢]، فهذه الآية صريحة في وجود

التَّدَيُّن في النَّفْس الإنسانيَّة قَبْلَ وجودها وظُهورها على ظَهْر البسيطة[1].

٥ - قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، فالنَّفْسُ أو الفطْرَةُ خلقها الله تعالى، وأودَعَ فيها هذا الاتِّجاه إلى الخالق، وأنَّ الإنسان مهما ابتعد عنْ منهج الله وجحد وجوده، وكفَرَ بالدِّين، فإنَّه لنْ يستطيعَ أنْ يغيِّر فطرته: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾

= بدليل أنَّه لا يستطيعُ أنْ يحجبَ هذه الفطْرَة ممَّا يجيشُ فيها عند الأزمات والأوقات الحرجة، وأعظم البواعث السَّابقة للتَّدَيُّن.

= وبدليل ما يجدُ الإنسانُ من النَّدم على الأفعال الذَّميمة، ومن وخز الضَّمير - إنْ بقيَ عنده ضميرٌ ولَمْ تفسدْه المقاتُ والشَّياطين، وهذا ما قصده رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشَّريف: «ما منْ مولُودٍ إلا يُولدُ على الفطْرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه»[2].

فالإنسانُ لا غنى لهُ عنْ التَّدَيُّن، لأنَّهُ جزءٌ من ذاته ونفسه وفطرته، ولهذا يُجيبُ أحدُ الفلاسفة الفرنسيِّين على سؤال: لماذا أنا متدينٌ؟ فيقولُ: لأنني لم أُحرِّك شفتي بهذا السؤال مرَّة إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو: أنا متدينٌ لأنني لا أستطيعُ أنْ أكون خلاف ذلك، لأنَّ التَّدَيُّن لازمٌ فطريٌّ من

---

(١) وغير ذلك من الآيات كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ أَمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧- ١٠]. وانظر ما سبق في النفس الإنسانية: ص٢٠٠.

(٢) البخاري في الجنائز، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات (١٣٥٨) ومسلم في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.. (٦٤٥٥).

نوازع ذاتي[1].

الدّين والعلم

أولاً – وظيفةُ العلْم ومَجالُه:

إنّ وظيفة العلْم والمجال الذي يعمل به والدائرة التي يدورُ فيها والإطار الذي يقفُ عليه محصور في النواحي الحسية ويقتصر على الأمور التجريبية التي تخضع للتجربة وتدركها الحواس من السمع والبصر واللمس والشم والذوق. وهي أمورٌ مادية محضة فالعلْم يقف عند هذا حدودٌ لا يتجاوزها.

= أمّا وظيفةُ الدّين في الحياة فإنها ذات مجال رحب، وتعملُ في دائرة أوسع بكثير جداً وتخرج عن هذا الإطار بأضعاف مضاعفة. فيبحثُ الدّينُ عن الكونِ وما وراءَ الكون، ويتحدث عن المادّة والروح، ويتناول الحياة وما وراءَ الحياة، ويدرك الأمور الحسية والقضايا الغيبية، ويهتم بالإنسان من النواحي الجسمية والروحية والنفسية والاجتماعية والتربوية... وغيرها من المسائل المعقودة التي لا يطولها العلْم، ولا تدخل تحت وسائله المادّيّة التجريبية المحدودة.

= ويضاف إلى ذلك أنّ الدّينَ يدعو إلى العلْم، ويرشدنا إلى أسرار الكون، ويحثنا على كشف ما فيه ويمنُّ علينا أنّهُ سخّر لنا ما في الأرض جميعاً. ولذلك فكلُّ ما وصل إليه العلْمُ من اختراعات واكتشافات، وكلُّ ما قدّمهُ للبشريّة فهو جزءٌ من دعوة الدّين، مع التنبيه المتكرر إلى المفهوم الصحيح للدّين الذي حدّدناه سابقاً، وهو دينُ الله الحقيقي، وهو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ الذي دعا

---

(١) العزلة وتضييع الفضيلة: ٢١، ٤٤.

إلى العلْم، وجعله فرضا عينيا أوْ كفائيا على المؤمنين[1].

ولذلك فإنّ مجال الدّين الصّحيح أوسع بكثير من مجال العلْم. فالدّينُ يشمل كلّ شيء في الحياة الدّنْيا، ويفتح لنا نافذة على الحياة الأخرى وإذا أردْنا التمثيل الهندسي للدّين والعلْم فتكونُ دائرة الدّين كبيرة جدا، وقد يصعب تقدير محيطها، وتمثل العلْم دائرة صغيرة ضمن دائرة الدّين، وقد يتغير محيط دائرة العلْم ضيقا واتساعا، وقد تنقص وتزيد، وقد تقصر وتطول، حسب التّقدّم العلْميّ والرّقي الحضاري والاكتشافات الكونيّة والتطور التقني في الوسائل والأساليب.

ويتضح عنْ معرفة مجال العلْم ومجال الدّين أن العلْم عاجز عنْ قضايا كثيرة لا تدخل في إطاره، ويستحيل عليه معرفتها لأنّها خارجة عنْ نطاقه وإمكانياته ومجاله واختصاصه، ممّا يستوجب أن نلتمس له مصدرا آخر غير العلْم، ونكون بحاجة إليه ليمدّنا بالمعرفة ممّا يعجز عنه العلْم، وأهمها:

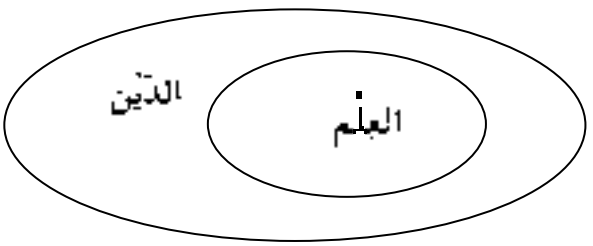

١ – **معرفة الغيْب**: سواء كان في الدّنْيا أم في الآخرة، في الماضي السحيق أوْ المستقبل، فالعلْم مثلا يعجز عنْ معرفة المستقبل سواء كان بعيدا لشهور وسنوات، أم كان قريبا لساعة ولحظات.

---

(١) ولا يعني بالدّين هنا مفهوم الكثير من الناس الذي حارب العلْم وحجر على علمائه وقتل المخترعين = = ومكتشفين وفرض على الناس تفسيرات باطلة، وسخافات ساذجة، والتأويلات الباطلة لنصوص يسيء للدّين، عندما يجد نفسه عاجزا عنْ تفسيرها بحجج وبراهين وأدوات علمية، وتسخير الوحي إلى غير ما يحث ويشجع ويرغب ويحارب ويتفكر، ويتساءل تحت مسمّى الإيمان، فلا تتعارض أي وحي السماء ولا أن العقل السليم والتفكير والتدبر الذي حثت عليه الشريعة، وإنما اقتصرت على عجز الإنسان في بعض أمور الكون وأرشدت إلى وجوب الاستعداد لها والسعي وراءها.

٢ – **قضية الخلود** في الأرض التي يطمح إليها الإنسان ويسعى جاهدا للبقاء ما أمكنه، وبذل طاقاته خصته فيها وإبعاد الموت عنه، فهل يُمكنُ للعلم أنْ يزيد في عمر إنسان لحظة واحدة أوْ يومًا واحدًا؟!.

إنَّ التقدُّم العلميَّ السريع في الطب والجراحة والأدوية يستطيعُ أنْ يوفر لنا حياة أفضل، وسعادة أكثر، وراحة أرحب، و لكنَّها تعجز عنْ أن تمنحه لحظة زيادة في عمره، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفث في روعي أنَّ نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها...»[1].

٣ – كما يعجز العلم بشكل ملموس في **القضايا النفسية** التي تشكل شطرا بارزا في حياة الإنسان في الدنيا، فلا يُمكنُ للعلم أنْ يمنع عنْ الإنسان القلق، ولا يستطيعُ أنْ ينزع منه الخوف إذا تعرض لأسبابه.

٤ – كما أن العلم عاجز عما يخرج عنْ نطاقه ولا يخضع للحس والتجربة والمشاهدة وأوضحُ مثال على ذلك روح الإنسان وعقله، فما هيَ الرُّوح، وما هو العقل؟!.

٥ – إنَّ العلم لا يتناول **القضايا الإنسانية** كالأخلاق التي تقوم عليها الشعوبُ والأمم والحضارات، لذلك فإنَّ الأخلاق تعتمد على الدِّين الذي يدعو إلى الأخلاق الفاضلة، ويحدد مدلولها ومفهومها ومداها، ثمَّ يكسبها صفة القدسية المثلى، وهذا كفيل بحفظها وبقائها واستمرارها.

يقولُ المؤرخ الفرنسي بياجيه: (الأخلاقُ بلا دين عبثٌ).

---

(١) هذا طرف من حديث رواه أبو نعيم حلية الأولياء (١٠/ ٢٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

ثانياً – مجالُ العلم وعجزه عن تغييرِ النُظام الكونيّ:

إنَ التقدُمَ العلميَ – قديماً وحديثاً ومستقبلاً – محصور في تفسير ظواهر الكوْن المرئية المحسوسة، دونَ أنْ يستطيعَ العلْم التأثير في حقيقتها وكيانها، وهو عاجز عنَ التأثير في جوهرها، أوْ التغْيير في تركيبها، أوْ التعديل في نظامها. فمثلاً العلْم الذي اكتشف تركيب الهواء والضغط الجوي ووصل إلى القمر ثم يستطيع – ولن يستطيع – أنْ يغير في تركيب الهواء، أوْ يزيل أثر الضغط الجوي، أوْ يبدل في نظام القمر.

ثالثاً: إنَ المسائل الكوْنية التي تخْضعُ لسلطان العلْم، وتدخل في نطاقه وادراته، وتتم عنها التجارب والمشاهدات، ويختص بها العُلماءُ – إنَ هذه المسائل الكوْنية العلْمية لم يقطع العلْم إلا بجزء يسير من حقائقها، ولَمْ يجزم إلا أحيانا بالنتائج التي توصل إليها، وإنَ أكثر المسائل المطروحة على بساط البحث العلْميَ لا تزال في حيز الاحتمالات والتكهنات، وفي مجال الفرضيات، وتتعرض لاحتمال الخطأ والصواب، وأن الأمور اليقينية القطعية التي وصل إليها العلْم لا تزال محدودة، فما بالك في المغيبات وما وراء الطبيعة؟! فإنهُ لن يصل إلى نتيجة فيها قطعاً.

رابعاً – إنَ العلْم سلاح ذو حدين:

يمكن أن يُستخدم العلم للخير، كما يُستعْملُ للشر، وإنَ التقدُمَ العلْميَ الذي يهيئ للإنسان والبشرية حياة أرغد، وسعادة أطيب، ورفيه واسعاً، فإنهُ يهدد الإنسان والبشرية بالخراب والدمار والإبادة. فمثلاً:

إنَ اختراع الذرة يُمكنُ أنْ يكون من أجل السلام العالمي والتقدُم الحضاري، كما يُمكنُ أنْ يكون للحرب وإبادة الشعوب وتشويه معالم الإنسان والكوْن.

أقوالُ العُلَماءِ في الدِّين

نختم بأقوال أساطين العلم في عصرنا الحاضر، ونكتفي بذكر بعضها في هذا الموضوع[1]:

١ - يقولُ مسلمون وبذلك: (ليس أمام الديانات مستقبلٌ غير مُحدَّد فحَسْب بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى كُلُّ شيء منها أبدا، ذلك لأنه سيبقى في الكون دائما أسرارٌ ومجاهيل، ولأنَّ العلم لن يُحقِّق أبدا مهمته على وجه الكمال).

٢ - ويقولُ الدكتور ماكس نوردوه عن الشعور الديني: (هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدن، كما يجده أعلى الناس تفكيرا، وأعظمهم حسًا، وسيبقى الديانات ما بقيت الإنسانية، وستتطور بتطوُّرها، وستتجاوب دائما مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة).

٣ - يقولُ هنري بيرغسون: (لقد وجدت ولا تزال جماعاتٌ إنسانيَّة من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنَّهُ لم توجد قط جماعة بغير دينٍ).

ويعقب الدكتور دراز رحمه الله على هذه الكلمات فيقول: (ولنقف قليلا عند هذه الكلمة، لأنَّهُ قد يبدو من الفارقات العجيبة، أنْ يكونَ ازدياد العلم وهو المفرقة سببا في نمو غريزة التديُّن، المبنية على طلب الغيب المجهول، ولكنا لو تأملنا لتحقَّقنا صحة هذه المفارقة ولعرفنا أن تقدُّمنا الحثيث في العلوم بقربنا حقيقة من الاعتراف بجهالتنا، والاقرار بأن مثل ما نعلمه من الكون في جانب ما نجهله منه كمثل قطرة واحدة من محيط خضم عميق، ذلك أن كُلَّ باب جديد يفتحه العلم من دلائل عظمة الكون وامتداده يفتح معه أفق أوسع للسؤال عما تتصل بهذا

---

(١) انظر هذه الأقوال وبعض غيرها في كتاب الدين: ٨٤-٨٩.

الميدان الجديد من المشاكل الكثيرة الغامضة)[1].

حاجة النَّاس للدِّين

وبعد هذا العرض السابق نطرح على أنفسنا أوّل نطرح على غيرنا، أوّ يطرح الآخرون علينا هذا السُّؤال: هل نحنُ بحاجة إلى الدّين؟ وهل النّاس اليوم بحاجة إلى الدّين؟

يظْهرُ للعاقل الرّشيد، والباحث المتجرّد عنْ الأهْواء والأحقاد، والعاشق الحقّ والحقيقة، يظْهرُ لهُمْ أن وظيفة الدّين في الحياة مهمة وخطيرة وضرورية، كما يظْهرُ لهُمْ بواعث الفطْريّة في النّفْس الإنسانيّة، وأثره البارز في حياة الفرْد والمجْتمع، ويتبين للقارئ أن العالَم لا يسُدّ مسدّه، ولا يقوم مقامه، وأن الإنسان لا يؤدي غرضه في هذه الحياة، ولا يستكمل إنسانيته ولا يلبي دوافعه وغرائزه وميوله، ولا تتحقّقُ لهُ السّعادة، ولا ينعم بالتّوازن والاستقرار إلا بالتّديّن، وأنّ الدّين جزء من حياة الفرْد والمجْتمع، وأنّهم بحاجة إليه كالطعام والشراب والغذاء، فمن تخلّى عنه، أوْ أعرض عنْ الأخذ به فلا يكون إنسانا سويا، وأقل ما يقال فيه أنّهُ شاذ عنْ الفطْرة الإنسانيّة والوجود البشري، ومثله كمثل من يحرم نفسه الفواكه أوْ الخضراوات أوْ اللحوم أوْ الطيّبات، أوْ يمتنع بصلف أوْ إصرار عنْ التمتّع بأشعة الشمس وضوء النّهار لعاهة في عقله أوْ لعقدة في نفسه، فيكون شاذ الفكْر، منحرف السلوك، وبالتالي فهوْ هزيل البنية، وضعيف الجسم، ينتظر حتفه رغم أنفه، ويلقى سوء خاتمته، والعياذ بالله.

---

(١) الدّين، د. ط: ٨٩- ٩٠.

شروط تحقيق الدِّين لوظيفته:

ولكن الدِّين لا يحقِّق وظيفته إلا إذا توفَّرت له ثلاثة شروط وهي:

١ - **العلم بالدِّين بشكل كاف ووافٍ ومفصل:** فقد وردت آيات كثيرة تدعو إلى العلم ووجوبه، وتؤكد وجوب التعلم والتعليم[1]. منها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنونَ لِيَنْفِروا كافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِروا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَروا وَكانوا بِآياتِنا يوقِنونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

٢ - **الإيمان بكل ما جاء به الدِّينُ الصحيح**، فلا يؤخذ بعضه ويهمل بعضه الآخر، ودون أنْ يؤخذ الدِّينُ للمتاجرة به، ويطبق بعضه، ويتاجر الناس بعضه الآخر، يقول تعالى: ﴿وآمنوا بما أنزلتُ مُصدِّقا لما معكم ولا تكونوا أوَّل كافرٍ به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإيَّاي فاتَّقون﴾ [البقرة: ٤١].

ويقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ القِيامَةِ يُرَدّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذابِ وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فالإسلام كلٌ لا يتجزأ، أمَا أنْ يؤخذ كله، وإمَا أنْ يُترك كله، بدون توقيع أو تمزيق.

٣ - **الالتزام بأحكام الدِّين وتطبيقه فعلا وعملا:** يقول الله تعالى منددا بمن

---

(١) انظر باب العلم وما جاء من الأحاديث في وجوب العلم والتعلم في كتاب الترغيب والترهيب: ١/٩٢ وما بعدها.

يعرف حكم الله ولا يطبقه. ويدعو الناس إلى دين الله وشرعه. ويعفي نفسه من ذلك. يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرونَ النّاسَ بِالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلونَ الكِتابَ أَفَلا تَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. ويقول تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفْعَلونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقولوا ما لا تَفْعَلونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

وهذه الشروط بسيطة ومنطقية وبديهية. ولا تحتاج إلى عناية كبيرة أو بحث مستفيض. ولكنها ذات أثر خطير وبارز.

وإنَّ كُلَّ سوء أو ضرر نجم عن الدّين أو باسم الدّين كان بسبب فقدان أحد هذه الشروط الثلاثة السابقة.

نتائجُ هامّة تؤكّد حاجة النّاس إلى الدّين:

أخيرا نستطيع أن نقدم خلاصة البحث. ونبين نتيجته التي تؤكد حاجة الناس إلى الدّين. فنقول:

١ - إنَّ الدّينَ الذي نقصده ونعنيه ونسعى وراءهُ هو الدين الذي ينظم حياة الإنسان وفق التوجيهات الربانية لإعمار الأرض. وتحقيق الغاية من وجوده عليها. وليس الدين بمفهومه الكهنوتي الذي ركب مطيته المتكبرون لاستعمار الشعوب وإذلالها.

٢ - نحنُ بحاجة إلى الدّين لأنهُ جزء من فطرة الإنسان وطبيعته. ولا يُمكنُ لإنسان عاقل أنْ يستغني عنْ جزء من فطرته وكيانه. وإلا كان شاذاً ومنحرفاً. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمونَ﴾ [الروم: ٣٠].

٣ - نحنُ بحاجة إلى الدّين. لأنهُ الوسيلة الوحيدة. التي تأمن مخاطرها.

ونضمن نتائجها **لتحقيق الحياة الإنسانية الكريمة**، وتأمين الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

٤ – نحنُ بحاجة إلى الدِّين لتأمين **الاستقرار النفسي والروحي** في حياة الأفراد.

٥ – نحنُ بحاجة إلى الدِّين **للحصول إلى النفع العقلي، والتقدُّم العلمي**، لأنَّ الدِّين في جوهره دعوة إلى التقدُّم والمدنيَّة والحضارة والترقي في مختلف المستويات.

٦ – نحنُ بحاجة إلى الدِّين **لإقامة التوازن بين الفرْد والمُجتمع**. ولأنه يُقيمُ العلاقة السديدة بين المواطن والدَّولة. فيعرف كل منهما حقه فيقف عنده. فلا يخرج الفرْد على الدَّولة والمُجتمع بالعبث والفساد والإجرام وتحكم بأرزاق الشَّعب والتلاعب بمقدرات الأُمَّة وقوت أفرادها. ولا تتطاول الدَّولة على الفرْد فتسلبه حقوقه الطبيعية والإنسانية. وتقيم الظلم والطغيان والتسلط والديكتاتورية. لتجْعَلَ من الإنسان آلة صماء أو حيوان أبكم لا يهتم إلا بطعامه وشرابه وشهواته. أو عضواً عاطلا أو متكاسلا أو متواكلا أو سلبيا.

٧ – نحنُ بحاجة إلى الدِّين لإنهاء الفرْدَة التي ابْتُلي بها العالمُ الحديثُ باسم العلْم، التي روَّج لها الصَّهاينة منذ قرنين تقريبا.

٨ – نحنُ بحاجة إلى الدِّين الذي يشيع ويرسي الإنسان الصَّالح، ويُحقِّق للإنسانية منْهجها وقيمها وأخوتها. بدون تمييز عنصري. ولا نعرات طبقي. ولا استعمار دوني. ولا اضطهاد فردي أو طائفي. ولا استغلال مادي.

٩ – نحنُ بحاجة إلى الدِّين لتنمية الوازع الدِّيني عند الطبيب والمهندس والمحامي والمُعلِّم والمدير والمدرس والموظف والعامل ورب العمل والتاجر والطالب والأب والابن والأخ والجار ليشعُرَ كل منهم بالآخر. وليُؤدي عمله الذي خلق من

أحدهم مع الحفاظ على القيم والأخلاق والمبادئ.

١٠ – نحنُ بحاجة إلى الدِّين لتحقيق التوازن في الإنسان بين روحه وجسده وعقله، ولإقامة التوازن بين غرائزه المختلفة، ولتوجيه ميوله وعواطفه الوجهة الصحيحة التي تحفظ الفرد وتخدم المجتمع والأمّة.

١١ – نحنُ بحاجة إلى الدِّين لإقامة المجتمع الفاضل، الذي يحقّق للأمّة العزّة والكرامة في الحياة الدنيا، والفوز برضوان الله يوم القيامة.

نسأل الله العلي القدير أنْ يعلمنا ما ينفعنا، وأنْ ينفعنا بما علمنا، وأنْ يلهمنا رشدنا، وأنْ يهيئ لنا من أمرنا رشدا، وأنْ يسدّد خطانا وأنْ يهدينا سبلنا، وأنْ يردنا إلى دينه رداً جميلا، وأنْ يهدي قومه فإنهم لا يعلمون، وأنْ يفتح بيننا وبين قومنا بالحق، إنّهُ سميع مجيب، وبالإجابة جدير.

البابُ الأوَّل

الأَدْيان غير الكِتابيَّة

مدخل الباب

الفصل الأول: ديانة مصر القديمة، ودين أخناتون

الفصل الثاني: أديان الهند الكبرى

الفصل الثالث: أديان من الصين

الفصل الرابع: من أديان بلاد فارس

مدخل الباب:

إنَّ الأديان السَّماويَّة الموجودة اليوم في العالم ثلاثة، وهي (اليهوديَّة، والنَّصرانيَّة، والإسلام). وهناك أديانٌ كثيرة أخرى لا يُحصيها العدُّ، ننشرُ هنا وهناك:

= بعضُها بعبدُ الأحجار والأوثان والحيوانات والكواكب وغيرها.

= وبعضُها يتَّجهُ في مجمله نحو الأنانية المُجرَّدة.

وقد أصبحتْ **الفئةُ الأولى** في حيِّز الأديان البدائيَّة، ولا يعتنقُها إلا الشُّعوبُ النائية، ولا يقبلُها إلا العقولُ المتخلِّفة، وأصبحتْ أشبه بعالم الخيال والأسطورة، مع الاعتراف بوجودها وبقائها وانتشارها في أماكنَ كثيرة من العالم.

أمَّا **الفئة الثانية** فكثيرةٌ أيضا، وهي على نوعها يُمكن أنْ نصنِّفها مجموعات:

- مجموعةٌ منها هي إلى الأفكار الفلسفيَّة المحضة أقرب منها لأنْ تكون دينا بالمعنى الذي قرَّرناه في الباب الأوَّل، فهي أديانٌ لا علاقة لها بالدِّين إلا بالاسم.

- مجموعةٌ أخرى هي إلى الأفكار الإصلاحيَّة والمذاهب الاجتماعية أقرب إلى الدِّين بالمعنى المتقدِّم، ولن أضرَّ أصحابها على إلحاقها بركب الأديان.

= ومجموعة ثالثة تجمعُ بين الأفكار الدِّينيَّة والأحكام التَّشريعيَّة.

وعليه فإنَّا لا نستطيعُ - مبدئيا - أنْ نحكم عليها بحكم واحد:

= فقد تكونُ أديانا وضعيَّة من عند البشر، وضعوها لغايات وأهداف خاصَّة.

= وقد تكونُ في أصلها سماويَّة، ثمَّ طرأ عليها التَّغيير والتَّبديل والتَّحريف حتَّى فقدت صلتها بأصلها الأوَّل.

= وقد يكونُ دُعاتُها أنبياء ورُسُلا من عند الله تعالى، ثمَّ تغيَّرت تصوُّرة بعد

وفاتهم، وألّحفت بهم الأساطير والخيالات، حتى طمست حقيقتهم.

= وقد يكونون متبعين ومخترعين، أخذوا الدين شعارًا لمآربهم الخاصة.

وسوف نعرض في هذا الباب بعض هذه الأديان التي انتشرت في (مصر، وفارس، والهند، والصين) وذلك في أربعة فصول:

الفصل الأول: نعرض فيه لديانة مصر القديمة، ودين أخناتون

الفصل الثاني: أديان الهند الكبرى، ونقتصر فيه على ذكر أوسع الأديان الهندية انتشارًا، وهي خمسة أديان (الفيدية، البراهمية، الجينية، البوذية، الهندوسية، وديانة السيخ).

الفصل الثالث: أديان من الصين، ونعرض فيه لديانتين أيضا، وهما (الطاوية، والكونفوشوسية)

الفصل الرابع: من أديان بلاد فارس، ونعرض فيه لدينين من الأديان التي نشأت في هذه البلاد، ثم امتدّ تأثيرها لما وراءها، وهما (الزردشتية، والمانوية)

الفَصْلُ الأَوَّلُ

ديانةُ المصريين القُدماء

ودينُ أَخْناتون

ديانةُ المصريين القُدماء

ودينُ أخناتون

يُعدُّ دينُ (اخناتون) من الأديان التَّوحيديَّة وضعها فرعونٌ من فراعنة مصرَ يسمَّى (أخناتون) وهو دينٌ يدلُّ على أنَّ الإنسان إذا دقَّت مشاعرُهُ وحسُنَ عقلُهُ، استطاع أنْ يصل إلى درجة يُدرِكُ فيها أنَّ للكون إلهاً واحداً فردا أحدا.

ديانةُ المصريين القدماء:

فبدأ بذكْرِ ما كان عليه دينُ المصريين القُدماء قبل (أخناتون): كانت مصرُ غارقة في خضم من عبادة آلهة عديدة مختلفة، أقدمُها أربابٌ من الحيوانات، انضم إليها أربابٌ تمثِّلُ مظاهرَ الطَّبيعة من (الهواء، والسَّماء، والنُّجوم، والشَّمس...) وتفرَّقت الآلهةُ في مدن مصرَ، وفي قراها، فكان لكلِّ منطقة إلهٌ خاصٌّ تعبده، وتدافعُ، وتطلبُ منه أنْ يحميها، وأنْ يمنع عنها الشُّرور.

وأرواحُ الآلهة تُجري وتتغلغلُ في كلِّ مكان. والآلهةُ يُشبهون الإنسان في نوع قوَّته ومقدرته، لكنَّ قوَّتهم ومقدرتهم أوسعُ من الإنسان وأشدُّ. فحولَهم أطولُ ومقدرتهم على جلب الخيرات أكثر. على أنَّهم يموتون كما يموتُ الإنسانُ، والإنسانُ مكوَّنٌ من جسم وروح وجوهر إلهيٍّ عام يُسمَّى (الكا) هذا الجوهرُ الإلهيُّ يستمرُّ كالآلهة بعد الحياة، فله إذن أنْ يعود، لكنَّهُ لا يعودُ إلا إذا بقي الجسمُ على شكْله، ومن هنا حدثت عادةُ التَّحنيط التي غايتُها بقاءُ الجسم على شكْله. وخصِّصت للأجسام المحنَّطة تماثيلُ العظيمة، والمقابرُ الفخمة تُدفنُ فيها فتبقى على ما هي عليه إلى أنْ يعود إليها (الأنكا).

وكانت عودةُ الحياة مختصَّة بملوك الفراعنة فهم الآلهةُ وإليهم تعودُ الرُّوحُ.

ولكنَّ تعدُّدَ الآلهة وازديادها جعل عودة الرُّوح إلى أجسام غير الملوك

جائزة.

ثم أتى يومٌ قلَّ فيه عددُ الآلهة وضاق مُحيطُها. وشرع الكَهَنةُ القوَّامون على المعابد والهياكل يرفعُ أحد الآلهة إلى مرتبة أعلى من الآلهة الأخرى، وجعل مقرُّ الهيكل الأكبر في مدينة (هليوبوليس).

وضمَّ الهيكلُ عددًا كبيرًا من الكَهَنة المتعلِّمين، فاستطاعوا بمساعدة (آل منفيس) أن يرفعوا آلهة مدينتهم - واسمه (آتوم) - فوق منزلة الآلهة الآخرين، ثُمَّ صهروه بـ(إله الشمس) فتكوَّن إلهًا واحدًا ضمُّوا إليه إلهًا آخر قويًا عندهم هو (إلهُ الخصب والموت) يدعى (أوزوريس) وهو ربٌّ عند المصريين يُقدِّمون له المأكل والخضراوات والمُنتجات الطبيعيَّة، ويُعطيهم الخصبَ، وكان لذلك مُقدَّسًا عندهم.

وكذلك أصبح لدَيهم إلهان (آتوم) وهو (إلهُ الشمس) مصهور به (إلهُ هليوبوليس) وإله الخصب (أوزوريس) هذا وإلهُ الشمس هو أصلُ الحياة عندهم، أمَّا إلهُ الخصب ففيه الاستمرارُ والإنتاجُ، بلدُ كلِّ ربيع ونموٍّ كلِّ خريف.

وقد وضع المصريون القدماء تاريخًا للخلق يدلُّ على تطوُّر تلك الديانة منذُ مبدأ الكون إلى عصرهم، ذكروا فيه فواصلَ الآلهة، وتنقُّلَ بعضهم على بعض.

وأنهوا ذلك التاريخ بأن اعترفوا بأنَّ من بعدهم فرعونًا يُصبح إلهًا، ويجبُ أن نحتفظ بمومياوه لأنَّها تأتي بالخير لمصر، وبنوا الهياكل العظيمة للفراعنة، وقعد فيها الكَهَنةُ، واستفادوا منها واستعملوا الشعوذة والسِّحر، وتسلَّطوا على العامَّة، وابتزُّوا الأموال، ودخلوا في حياة من الترف كبيرة، بل إنَّهم باسم الآلهة استطاعوا أن يعيشوا حياة الاستهتار. فاتَّخذوا في الهياكل نساءً يُقيمونهم في المظاهر لأمور الدِّين، ويستمتعون بهنَّ في الحقيقة.

أخناتون:

في هذا الجو استولى (أمنحوتب الرابع) على الملك بعد أبيه (أمنحوتب الثالث) وكان رقيقا في مشاعره، رقيقا في نفسه، عليا في أخلاقه، عفيفا ذا نفس طيبة غاية الطيبة، ويظهر على تلاميح وجهه الذي نقل إلينا مرسوما آمارة الرقة المتناهية بحزنه وحلمه ورقته.

نظر (أمنحوتب الرابع) في الديانة التي بين يديه فمجتها نفسه، ومجّ منها بصفة خاصة أعمال الكهنوت واستغلالهم للناس وانهماكهم في الملذات. وأخذ يبحث عن إله جديد. فرأى أن الشمس هي التي تعطي العالم الخير، وهي التي تحي النبات، وتعشّ النفوس، رأى في الشمس مظهرا من مظاهر الألوهية. فهي مبعث الحياة، وهي إذن ممثل الالهة، فدعا الناس إلى عبادة الإله الجديد بعد أن كوّن دينه وأعطى الشمس اسما هو (آتون).

ملخص دين أخناتون:

وملخص دينه أنه يعتقد أن الإله واحد أحد خلق كل شيء في هذا الكون، وخلق الخلق بكلمة منه، وهو ليس إلى جانبه إله آخر، وليس رب شعب محدد بل رب كل البشر، وهو إله الخير، لأنه مبعث الحياة، ويكثر من الخيرات، ويملأ العالم خيرا بواسطة أشعة الشمس، ويملؤه بركة. تلك الأشعة، وتصور تلك الأشعة عند فنان (أخناتون) على شكل ينتهي بصورة يد مبسوطة لبارئ الخير، والمظهر البريء المرئي للإله الواحد الأحد هو قرص الشمس، فهي ممثل خير الإله، وتمثل بركاته. وهي عند (أخناتون) مبعث الحب، والله خلق خزائنها لتدفق الناس وتبعث فيهم الحياة. وتبعث في الحيوانات القوة، وفي النبات النمو.

نجد تعبيرا عن هذه المعاني في الأناشيد التي كانت ترتل لـ (آتون) ونوجه

إليه، وعنده واحدة منها[1]:

يا أجمل مطلعك في أفق السماء..
أي أفنون الحي مبدأ الحياة..
فإذا ما أشرقت في الأفق الشرقي..
ملأت الأرض كلها بجمالك..
إنك جميل عظيم يرقى عالٍ فوق كل الرؤوس..
أشعتك تحيط بالأرض، بل بكل ما صنعت..

* * * * * * * * *

ومهما بعدت فإن أشعتك تقمر الأرض..
ومهما غلوت فإن آثار قدميك هي النهار..
وإذا ما غربت في أفق السماء الغربي..
خيم على الأرض ظلام كالموت..

* * * * * * * * *

يا أبهى الأرض حين تشرق في الأفق..
وحين تضيء يا أفنون النهار تدفع أمامك الظلام..
وإذا ما أرسلت أشعتك أضحت الأرض في أعياد يومية..
واستيقظ كل من عليها ووقفوا على أقدامهم..
الإله الواحد الذي ليس لقدره سلطان كسلطانه..
هو من خلقت الأرض كما يهوى قلبك..

* * * * * * * * *

---

(١) من قصة اخناتون لستيفان تسفايغ، ترجمة محمد يدران: ١٩٦٩/٢ - ١٧٤.

إنّ أشعتك تغذّي كلّ الخلائق..
فإذا ما أشرقت سرت فيها الحياة..
فأنت التي تنميها..
أنت موحّد الفصول لكي تخلق كلّ أعمالك..
خلقت الشتاء لتأتي إليها بالبرد..
وخلقت الحرارة لكي تتذوّقك..

* * * * * * * * *

لما اكتشف (أخناتون) إلهه ووحد أنّهُ واحدٌ أحدٌ، وأنّهُ خيرٌ، وأنّهُ يعطي البركة، وأنّهُ لم يخلق الكون مع الآلهة الآخرين، ثم يعدْ يستطيعُ كتمانها ولا كتمانَ اسمها فغيّرَ كلّ شيء، وتبعها، بلْ لم يرض بأنْ يقيمَ في مدينة (هليوبوليس) فانتقلَ إلى مدينة جديدة أنشأها تدينه دعاها (إخوت أتون) وبنى فيها هياكل جديدة، وبنى مواضعَ أخرى في مختلف أنحاء مصر، بلْ لم يرض عنْ اسمه واتخذ اسماً جديداً فدعى نفسه (أخناتون) ومعناه (أتون راضٍ) وتبع الكهنة، وقضى على سحرهم وشعوذتهم، وأخذ منهم أموالهم، وألزمهم بعبادة الإله الجديد، فأقبلوا عليه متأففين غير راضين.

وشرع (أخناتون) يضع لمصر أسلوباً جديداً في الفنّ يوافقُ طرازَ التدين الذي وضعه. فطلب من الفنانين والرسامين والنحاتين أنْ يتركوا الطرق القديم، وأنْ يقبلوا على الطبيعة التي هيَ منْ خلق الإله، والتي هي ظاهرة من ظواهره فيأخذوا منها، فأطاعوه وصاروا يرسمون كلّ شيء بواقعية جديدة، ومنعهم من تصوير الإله. فالإله عنده حقيقةٌ لا صورة لها. وكذلك سمّى فنّهم بتعبيره الروحية سموا عظيماً.

هذا الدِّينُ الذي وصل إليه (أخناتون) بذكائه ورقَّة عواطفه فأقرَّ فيه بوجود إله واحد أحد، خالق للكون جميعه، وليس إلى جانبه إلهٌ آخر. دِينٌ لم يكُنْ أهلُ مصرَ بقادرين على فهمه، فقد كانَ ذهنهم مُشبَعاً بذلك العدد من الآلهة الذين بين أيديهم يتقرَّبون إليهم، ويخدمونهم، ويحتمون بهم في كُلِّ حين. وزاد الطِّينَ بلَّة علمُهم أنَّ (أخناتون) غيَّرَ اسمه، فرفع اسم أبيه واستبدله بـ (أخناتون) وهذا عند قدماء المصريين أمرٌ خطيرٌ. فالقراعنةُ عندهم آلهةٌ مخلدون، وليس لـ(أخناتون) أنْ يتهمَهم. وحرَّك الثَّورةَ في هذا الأمرِ الكهنوتُ الذين أُصيبوا في أموالهم وعملهم وربحهم.

ثم أتى حادثٌ آخر قضى على كُلِّ أملٍ (أخناتون) وهو أنَّ هذا الملك انشغل بشؤون دينه عنْ الاهتمام بشؤون إمبراطوريَّته الواسعة. وهذا الإهمالُ مهَّدَ السَّبيلَ لبعض التَّابعين لتلك الإمبراطوريَّة فأعلنوا الانشقاقَ عن مصر، فهذه سوريَّة تعلنُ العصيانَ ثمَّ تستقلُّ. ولم يُعالج (أخناتون) ذلك معالجة حاسمة. فقد كان في أعماق نفسه لا يعتقدُ كلَّ الفقيدة حقَّ مصرَ في حكم الأمم الأخرى. ومهما يكُنْ من أمر فإنَّ انشقاق المَملكة عليه ولَّد له المتاعبَ والمشاكلَ الكثيرة. فاضطرب لها وعاش في الثَّلاثين منْ عمره مقهوراً حزيناً مجروحَ القلب، مكلومَ الفؤاد، وما إنْ مات حتَّى قُضيَ على دينه وعاد المصريون إلى دينهم القديم. وعادَ الكهنةُ اسم (آمون) واسم (أخناتون) من المعابد والهياكل والجُدران، فقضوا على الدِّين وأزالوه بعد إذْ كان، وأصبح أثراً بعد عين.

الفصلُ الثّاني

أَدْيانُ الهِنْدِ الكبرى

المدخل

أوّلاً – الفيديةُ

ثانياً – البَراهميَّةُ

ثالثاً – الجينيةُ

رابعاً – البوذيةُ

خامساً – الهِنْدوسيَّةُ

المدخل

إنّ شبه القارّة الهنديّة من أكثر بقاع العالم أديانًا. وتنتشرُ الأديانُ المتعدّدة فيها انتشارًا واسعًا. ولا تكاد تمرُّ مسة من الزّمن منذ القديم وإلى يوم النّاس دون أنْ تظهر في الهند دينٌ جديدٌ. مما اضطر الحكومة الهنديّة لإحداث وزارة خاصّة بـ الأديان، من أبرز مهامها أنْ وضعت أُسُسًا لتسجيل كلّ دين جديد. وقد اشتهرت بسبب ذلك مقولة (إنّ الهند تُنبتُ الأديان كما تُنبتُ الأرضُ البقلَ) ولذلك فإنّ البحث عن الدّيانات الهندية أمرٌ في غاية الصّعوبة، لما يتخلّله من عُقد ومشاكل، وتتمثّلُ هذه العُقدُ بالتباسِ الأديان المتعدّدة بعضها مع بعض في مصادرها الأولى، وتشابه آرائها وأزيائها، ثُمّ اختلافها اختلافًا لا يظهرُ واضحًا في كلّ مراحل تطوّرها).

ولقد اشتركَ عددٌ هائلٌ من المفكّرين والفلاسفة في وضع ديانات الهند، فأنتجوا إنتاجًا ضخمًا متشابهًا متخالفًا موحّدًا متشابكًا متضاربًا.

وتطوّرت الأديانُ الهنديّةُ فتعقّدت وتشابكت مرّة أُخرى.

وعلى ذلك وجبَ حين بحثها تصنيفُها وذكرُها متطوّرًا مع الإشارة إلى تفرّع بعضها عن بعض حتّى تتضح الأمورُ ويفهمُ السّياقُ.

ومما يزيدُ في صعوبة البحث في الدّيانات الهنديّة أنّها لا عقيدة واضحة لها، ولا يوجدُ لها أُسلوبٌ فلسفيٌّ موحّدٌ، وأنّ بعضها يخلو من فكرة الإله أصلًا، فتجدُ دينًا بلا إله، وبلا مُمارسة للعبادات.

هذا وإذا أردْنا أنْ نحصرَ الأديان الرئيسيّة المهمّة في الهند أمكننا أنْ نقول: إنّها (الفيدية، البراهمية، الجينية، البوذية، الهندوسية، ودياناة السّيخ).

هذه هي الدّيانات الكُبرى الأصليّة في الهند، ويتفرّعُ منها فرقٌ ومذاهبُ، وإلى جانبها أديانٌ كثيرةٌ أُخرى.

أوّلاً – الفيْدِيّةُ

كانَ في الهندِ قبلَ القرنِ الخامسَ عشرَ قبلَ الميلادِ شعبٌ يُسمّى (الدرافيديين). وكانَ لهذا الشّعبِ حضارةٌ قديمةٌ، وهوَ على شيءٍ من الثّقافةِ والمعرفةِ، وكانَ لهُ دينُه أوْ أديانُهُ، ومعظمُها مبنيّةٌ على الاعتقادِ بالحيوانِ إلهاً. وإلى جنبِ الحيوانِ آلهةٌ أخرى. وفي القرنِ (١٥ ق.م) أوْ قبلَهُ وردَ الهندَ شعبٌ حضريٌّ من أواسطِ آسيا، وهوَ ما يُعرفُ الآنَ بـ(الآريين)، ويقالُ: إنّ أصلَهُ من أوروبا، وأنّهُ من الأقوامِ التي سُمّيتْ فيما بعدُ بـ (اليهودِ الأوربيّين) وقد اختلطَ هذا الشّعبُ بالدرافيديين، وكوّنَ فيهم ما دُعيَ بـ (الكاستِ) وهي طبقاتُ النّاسِ، وحرفِهم، وأعمالِهم، فألزمَ بالا بتعدّي أصحابُ كلّ حرفةٍ إلى غيرِها، وجعلَ على رأسِ الكاستِ الشّرفاءَ والنّبلاءَ وهُمُ (الاريون).

باجتماعِ هذيْنِ الشّعبين – (الدرافيديين) و(الاريين) – نتجَ دينٌ جديدٌ هوَ (الفيْدية). أخذتِ الفيْديّةُ من الدّينِ الدرافيديِّ القديمِ، وأخذتْ من الدّينِ الاريِّ القديمِ.

= أخذتْ من آلهةِ الاريين: (أغنيت) إلهَ النّارِ، و(انـدرا) إلهَ الجوّ، و(سوريا) إلهَ الشّمسِ.

= وأخذتْ من الدّيانةِ الدرافيديةِ عبادةَ بعضِ قوى الطّبيعةِ والحيواناتِ.

والفيْديّةُ تهتمُّ بالأضاحي بالتّضحيةِ للآلهةِ والمعالمِ. فليستْ الغايةُ منها على ما يظهرُ عبادةَ الآلهةِ في الدّرجةِ الأولى، بلِ الغايةُ منها: (دوامُ الخلْقِ)، ودوامُه يكونُ بـ(القُربان) إلى الآلهةِ. والذي يظهرُ أنّ الآلهةَ لا تستطيعُ وحدَها أنْ تسيّرَ العالمَ وتزيدَ فيه، بلْ ينبغي لها التّضاحي والقُربان. وفي القُربانِ أساسٌ لتوسّعِ الخلْقِ ونموِّه وتعدُّدِه، فالكونُ يتقدّمُ بالتّضحيةِ والقرابينِ، وهي ضروريّةٌ لانعاشِه

وتقويته ويبعث الحياة فيه.

والعالمُ (باراجاتي) وهو كائنٌ حاملٌ يستفيدُ من تلك القرابين، ويأخذُ قوتَهُ منها. وإذا أخذ قوتَهُ من القرابين أحدث الشيء الجديد، ويظهرُ من ذلك أنَّ العالمَ واحدٌ، وأنَّهُ حلقةٌ متصلةٌ بعضُها ببعض، تأخذُ من نفسِها وتنمّي وتطوّر.

تستندُ الفيدِيّةُ على كُتُبِ (فيدا) أوْ (فيداس) وهي مكتوبةٌ باللُّغة السنسكريتيّة القديمة التي سقطتْ من الاستعمال.

وبكلمةٍ واحدة:

= ليستْ العبادةُ في الفيدِيّة موجّهة للآلهة إنما هي لتقوية تكوّن واحدٍ فيه، وللعودة إلى الوحدة.

= والآلهةُ تشهي إلى واحدٍ هو (البراهمان).

ثانياً – البَرهميّةُ

خرجتْ البرهميّةُ من الفيدِيّة مع تطور الزمن، وأخذتْ شكلاً فلسفياً بعض الشيء، فيه إيضاحٌ لفكرة الفيدِيّة وتحديدٌ لها. فقدْ قالتْ الديانةُ البرهميّةُ بوجود شيئين، هما:

= (البراهمان) وهو مبدأُ العالمِ وأصلُهُ.

= و(الأتمان) مبدأُ الأنا أوْ الشعور بالشخصيّة وبالكون الخارجي، أوْ بكلمةٍ أخرى الروح.

فهناك إذنْ ثنائيةٌ وهي:

أولا: الكونُ المحيطُ بنا، والمظاهرُ الخارجيّةُ.

وثانياً: شعورُنا بنفسنا وشخصنا.

ولابدَّ منْ أنْ ينتهيَ الأمرُ باتحاد (البراهمان) مع (الأتمان) لتكونَ وحدة العالم التي ترمي إليها الأديانُ الهندية، ولكنْ كيف تكونُ تلك الوحدة؟

إنَّ الموتَ يُحقِّقُ بداية تلك الوحدة، فالروحُ تخرجُ من الجسد وتنتقلُ متنزِّحة إلى أجسادٍ أُخرى وأشكالٍ أُخرى حتى تنتهيَ يوماً إلى الفناء بالعالم والخلود، والسؤالُ:

= كيف تكونُ هذه النهاية؟

= وكيف يُمكنُ أنْ تُعطي (الاتمان) قوةَ التحوُّل إلى الفناء في العالم الخالد؟

وتجيبُ الديانةُ البرهميةُ بالقول:

إنَّ الإنسان قد تنتقلُ روحُهُ إلى صورةٍ أُخرى حيوانيةٍ أوْ غير حيوانية، وهذا هو (التقمُّص). والتقمُّصُ قد يكونُ رُقيّاً أوْ انحطاطاً. والرُّقيُّ هو الذي يؤولُ إلى النهاية المُطلقة التي هي فناءٌ في العالم الخالد. فعلينا إذنْ أنْ نبحث عنْ الرُّقيّ، وأنْ نسعى إليه. والرُّقيُّ يكونُ بعمل الخير، وبممارسة الفضائل، والفضائلُ تدفعُ الإنسان إلى الوحدة، تدفعُهُ إلى ذلك خلال مراحل تقمُّصه، تلك المراحلُ التي تدعى (الكارما) فالكارما: هي ذلك النوعُ من التقمُّص المتدرِّج المتصاعد الذي يؤولُ إلى الوحدة، والذي قد يكونُ ربَّ قويّ قادراً، له أثرُه في تطوُّر العالم.

هذه الديانةُ هي التي انتهى إليها رأي البراهمانيين. ووضعوا لها طقوساً دقيقة، وحدَّدوها بعباداتٍ منظَّمةٍ متممة، وقام الكهنةُ بتلك العبادات، وطلبوا من المُتعبِّدين أنْ يُقدِّموا القربينَ لهم. فأصبحت الديانةُ في نظر الشعب ذلك الهيكل من الكهنة، وتلك القربين، وأتى (بوذا) فوجد الأمرَ على ما وصفْنا، فربأ به نفسَهُ عنْ ذلك، وأوجد ديناً جديداً حاول أنْ يقضيَ به على عمل الكهنة وعلى القربين.

ثالثاً – الجينية

وضع هذا الدين وبشّر به (مهافيرا) الذي اسمه (جينا) ومعناه (المنتصر) أي المنتصر على كلّ الشهوات البشرية، وجينا ابن المَهَراجا في الهند، وقد عاش بين عامي (٥٢٨ – ٤٦٨ ق. م). فهو إذن أقدم من (بوذا). حتى يُقال إن (بوذا) تبع تعاليمه أول الأمر.

مال (جينا) إلى التزهّد، فترك أهله، وانقطع إلى العبادة والتعليم عشر أعوام. فإذا به يرى أنّه قد اكتشفت له معارف العالم، وانتصر على الشهوات، وتمكّن من (الكارما) فأخذ ينشر مذهبه وتعاليمه.

يقول المذهب الجيني: إنّ العالم يمرّ في دورتين، وفي كلّ دورة أربعة وعشرين جينا (المنتصر على الشهوات).

– لقد مرّ العالم في الدورة الأولى وهي دورة صعود نحو الخير، وقوّة في جسم الإنسان، وامتداد في حياته.

= أمّا الدورة الثانية وهي الدورة التي فيها الإنسان الآن فهي دورة تقهقر وهبوط مستمرّ. وقد ظهر الأربعة وعشرون (جينا) فكان آخرهم (مهافيرا).

وتضيف تلك التعاليم أنّ كلّ شيء في العالم خالد (المادة، والجسم، والروح). أمّا الأرواح فتحافظ على شعورها بنفسها دوماً خلال كلّ مراحلها وتقمّصاتها، على أنّ سلوك المرء خلال تقمّصاته يؤثّر فيه إنْ خيرا فخير وإنْ شرا فشرّ. وقد يبلغ المرء (النرفانا) بعد تقمّصات عددها ثمانية.

أمّا الزهّاد فقد يبلغون ذلك في اثني عشرة سنة دون تقمّص وذلك باتّباع مبادئ فيها تُكران شديد للنفس، وتبعٌ للنظام الرهباني. وأخذ بخمسة مبادئ لا بُدّ عنها:

أولها: وهو (أهيمسا) عدمُ أذيّة أي مخلوق كان، يستوي في ذلك الإنسانُ والحيوانُ والحشراتُ، فكلُّ حياةٍ مُقدّسةٌ كحياة الإنسان، وخالدةٌ مثله.

ثانيها: ذكرُ الحقيقة دون مواربة.

ثالثها: عدمُ السرقة.

رابعها: عدمُ اقتناء الأموال الدُّنيويّة.

خامسها: التعفُّفُ عن الشهوات الجسديّة.

تلك هي المبادئ التي تسهّلُ على الزُّهّاد بلوغ (النرفانا) في مدى اثنتي عشرة سنة.

وهنالك ثلاثةُ مبادئ تُفيدُ كلَّ إنسان، وهي: العقيدةُ الصحيحة، والمعرفةُ الصحيحة، والسلوكُ الصحيحُ.

آلهةُ الجينيّة، وأخلاقُهم:

لم يكن الجينيون يعبدون إلهًا ما ابتداءً، بل كانوا يعبدون الآلهة والأرواح والشياطين، ثمّ إنهم اتخذوا بأخرة بعضَ آلهة الهندوسيّة إلى جانب (جينا).

وهُم مُلزمون بأنْ يُمارسوا حرفة شريفة لا يتعرّضُ فيها مُمارسُها لقتل أي روح.

وعليهم أنْ يكونوا مُحسنين، مُتواضعين، وألا يدعوا فرصة تفوتهم دون البحث عن عمل الخير.

وعددهم اليوم قليلٌ فهم لا يتجاوزون مليونًا ونصف المليون.

رابعاً - اليهوديّة

يحتل اليوم لا يتصفُ بدين له صفةُ الأديان الأخرى، أي الاعتقاد بالإله، بل هو جهدٌ وطريقٌ وبحثٌ عن خلاص النفس الإنسانيّة من شقائها وآلامها عن طريق

التقدُّمِ المستمرّ وتعذيب النفس، قام بهذا البحث رجلٌ عظيمُ النفس، قويُّ الإرادة، كثيرُ الحساسيّة، عطوفٌ على الفقراء والمساكين، وعلى الناس عامّة، هو (غوتاما).

سنحاولُ هذا التقدّمَ بالبحث على أساس عرض تاريخ حياته، ففي ذلك العرض يظهرُ (غوتاما) على حقيقته التامّة، وتظهرُ آراءه ومذهبه، ثمّ إنّا عند البحث معنا في حياته، ونفصّل بعضَ التفصيل فيما أن إليه نذهبُ فيما بعد.

على أنّ حياة (غوتاما) مزيّنةٌ بالخرافات، ومطليّةٌ بطلاء التحليّة. والوصولُ منها إلى الحقيقة صعبٌ بعضَ الشيء. وسنحاولُ أنْ نُعطي بالتقريب ما يُخيَّلُ للمرء أنّهُ كانت عليه حياتُه.

ولد (غوتاما) تقريبا عام (٥٦٣ ق.م) وهذا التاريخُ ليس متّفقا عليه. وتُوفي حوالي (٤٨٣ ق.م) وهو تاريخٌ لم يتّفقْ عليه المؤرخون أيضا، والمتّفقُ عليه أنّ البوذيّة نشأت في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وأوائل القرن الخامس قبل الميلاد. وتقولُ الأسطورةُ إنّ غوتاما (بوذا) نشأ في عائلة غنيّة كلّ الغنى، وأنّ والدهُ كان ملكا في إحدى مقاطعات (نيبال)، على أنّ الشيء الذي انتهى إليه البحثُ هو أنّ والدَه لم يكنْ ملكا وإنما كان رئيسا لقبيلة من القبائل، وكان من أشراف الاريين من طبقة المحاربين، وبما أنّ الاريين هُم الطبقةُ الأولى العالية في نظام (الكاست)، فوالدُه إذنْ من الطبقة المتميّزة على كلّ حال.

عاش غوتاما (بوذا) في وسط غنيّ، وتمتّع بحياة البذخ، وتزوّج وعمرُه تسعُ وعشرون سنة، وأنجب، غير أنّه كان ذا حساسيّة شديدة، ونفس رقيقة، وعطف على الناس فكان يخرجُ حينا من قصره فيرى الناسَ في حيائهم وشقائهم وجوعهم فتستقرُّ نفسُه، ويطولُ تفكيرُه.

وقيل: إنّه رأى يوما مريضا وجثّة ورجُلا فقيرا، فتمثّل الشقاءُ أمامَ عينيه

بأجمعه، فعاد إلى قصره، واعتمد أنْ يَتْرُكَ كلَّ ما هو عليه، ويغادرَ في اليومِ الثاني قصرَهُ، ويقالَ: إنَّهُ تركَ زوجتَه وهي على وشكِ الولادة.

كان (غوتاما) قد تساءل كثيرًا ما هذا الشقاءُ وما سببُه، فعمدَ إلى دراسة الديانة البراهمية فلم يجدْ فيها سؤالَه، ووجدَ أنَّ تلك الديانة تسعى إلى التوحيد بين (الأتمان، والبراهمان) عنْ طريقِ التقمُّصاتِ المتكرِّرة والآلامِ المتتابعة، وتعذيبِ النفوس، ورأى أنَّ ذلكَ السببَ في أيدِ الكهنةِ يوجِّهونَه ويستفيدون من قربانِه، فمجَّتْ نفسُه كلَّ ذلك، وكانَ هذا هو السببُ الحقيقيُّ لتركِه قصرَهُ وهيمانِه على وجهِه في العالم.

فخرجَ إذنْ يبحثُ عنِ الحقيقةِ وعطلِها من العارفين، فيتصلُ بالنابهين من البراهمة، ويأخذُ عنهما آراءهما، لكنَّهُ لا يجدُ في كلِّ ذلكَ ما يُشبعُ رغبتَهُ فيتركُهما ويهيمُ على وجهِه تارةً أُخرى، فيجتمعُ بخمسةٍ من المتزهِّدين البراهمانيين، ويعرفُ أنَّهم يبحثون عنِ الحقيقةِ كما يبحثُ هو، وأنَّهم يعذِّبون أنفسَهُم ويتزهَّدون في الحياة، عسى أنْ يصلوا إلى الحقيقة. فسارَ معهم وعاشَ حياتَهُم حتَّى ظهرتْ عظامُ صدرِه، ووقعَ على الأرضِ من الجوع، وبقيَ على هذه الصُّورةِ ستَّ سنواتٍ سواءً، وإذا به يرى أنَّ كلَّ ذلكَ ليس بنافعٍ له، وأنَّ هذا التعذيبَ وذلكَ الصِّيامَ لم يؤدِّيا به إلى كبيرِ شيء، فيعزمُ أنْ يعودَ إلى الحياةِ العاديَّةِ حياةِ التجوُّلِ دونَ تعذيبِ النفسِ، ودونَ إلحاقِ الأذى بالجسم. فيفرُّ منه رفاقُهُ الخمسةُ إذْ خالفَ عهدَهُم، ويبتعدون عنه، ويهيمُ هو على وجهِه يسألُ الناسَ الطَّعامَ والإيواء، ثُمَّ يدبُّ به اليأسُ وهو قد مضى عليه أملٌ طويلٌ لم يصلْ إلى مُناه.

ويلجأُ يومًا إلى شجرةِ تينٍ، فينوي أنْ لا يغادرَها إلا بعدَ أنْ يتمَّ له فهمُ

الحقيقة[1]، ويبقى تحت تلك الشجرة سبعة أسابيع، وهو ينادي الحقيقة، ويناديه، وبعدها التأمل، ويطلب النور، وإذا بالنور يأتيه وتنكشف الحقائق له. فيتحرر ويصل إلى المعرفة، وفي هذه الأثناء يأتيه تاجران فيشرع في تعليمهما ما انتهى إليه من الرأي والاكتشاف فيؤمنان بما يقول، ثم يعود إلى رفاقه الخمسة، فيشرح لهم ما وجده، فيؤمنون بذلك ويصدقونه، وستشرح الحقائق التي انتهى إليها مأخوذة من الكتب التي وضعت في اللغة البوذية.

اكتشف غوتاما - وقد سُمّي (بوذا) أي (المنوّر بالنور) الذي أتاه - تحت تلك الشجرة الحقائق الأربع التي تعدُّ أساس مذهبه ودينه، وهذه الحقائق هي:

١ - كلُّ موجود كائن في هذا العالم يتنقّى الألم في نفسه، ويعيش فيه طيلة حياته، ولا قيمة للأشياء، والحياة كلُّها شقاءٌ ونعذيبٌ. والحقيقة الأولى إذن هي حقيقة التشاؤم الشديد الذي تتصف به البوذية أكثر من أيّ دين آخر. وهو تشاؤم لا داعي له بالمقدار الذي ذكرته البوذية.

٢ - ما هو أساس الألم والشقاء؟

أساسه أنّ الإنسان يبحث عن الشهوة واللذّات، ويبحث عن زيادة الحياة ويتبّع الحياة، ويخلو فيها ويطلب ملذّتها ومسرّتها، فهو نهمٌ لهما شديدٌ.

وهذا النهم الشديد هو سبب شقائه وعلّة مصائبه، إنّ هذا النهم تصحبه لذّاتٌ شهوانيّة، ويزداد البحث عن تلك الملذّات فلا يشبع الإنسان من ذلك البحث، وينتقل من إشباع للحواس إلى إشباع آخر، دون أن يتمّ الإشباع الكامل، بل البحث متصل، والجري وراء الشهوة مستمرّ، والرغبة في الحياة متدفقة لا تقف، واللذة والرغبة تجعلان الإنسان يتمسك بتلك الأشياء الدنيوية الفانية،

---

(١) يذكر أنه سمر براحة كبيرة تحت تلك الشجرة، فسمّيت بهذا الاسم.

فيدورُ في البحث عنها في حلقةٍ مُتتابعةٍ لا تقفُ، ويتولَّدُ خلالَ ذلك الدَّوران والتتبُّع الشيخوخةُ والموتُ والعذابُ والحزنُ واليأسُ.

٣ – يتساءلُ الإنسانُ ويتساءلُ بوذا:

كيف نزيلُ الآلامَ ونتخلَّصُ منها لنحيا الحياةَ اللائقة؟

وجوابُ بوذا عنْ ذلك: أنَّ القضاءَ على الشهوة يُزيلُ الآلامَ، والقضاءَ على الرَّغبات والتهم المستمرِّ في البحث عنِ الملذَّات يُبعدُ الآلامَ ويُزيلُ العذابَ، حتى إذا تم يبقَ عندَ الإنسان أيَّةُ شهوة (كان التَّواضعَ، والصَّدقةَ، والتحرُّرَ، وطردَ التهم العنيف).

٤ – وإذا قضى الإنسانُ على شهواته وتحرَّرَ من التهم والعُنف استطاعَ أنْ يُدرك (النرفانا) والنرفانا: مبدأٌ أساسيٌّ من مبادئ البوذيَّة، اختلفَ المؤرِّخون والباحثون في شأنها وما هي؟

فقال بعضُهم: إنَّها الفناءُ.

وقال آخرون: بلْ هي اليومُ الآخرُ، أوْ حياةٌ أُخرى يدخلُ فيها المرءُ بعدَ تحرُّرِه من تهمه.

والذي انتهى إليه بحثُ الباحثين المُتأخِّرين هو أنَّ (النرفانا) ليستْ هذا ولا ذاك، بلْ هي تلك النَّشوةُ التي تنبعثُ في النَّفس منْ إدراك المُنى في أمرٍ روحيٍّ، هي النَّشوةُ التي يَصلُ إليها العالمُ وقد اكتشفَ اكتشافاً جديداً لم يكتشفْ مثلَه، هي النَّشوةُ التي يحسُّ بها المتصوِّفُ وقد انتقلَ إلى عالمه في إحساسه ومقاماته، هي نوعٌ من اللَّذة الصَّافية التي لا نجدُ والتي ليستْ إحساساً ما.

ولكن كيف تصلُ إلى (النرفانا)؟ وما هي الطَّريقُ إلى ذلك؟

لعلَّ بحث بوذا هو ذا، وهو الأصلُ في مبدئه وأساس دينه.

يقولُ بوذا: إنَّ الطَّريقَ إلى ذلك هو طريقٌ مثمَّنٌ أوْ مبادئ ثمانية:

١ – الإيمانُ الصحيحُ	٢ – العزمُ المستقيمُ
٣ – الكلامُ السليمُ	٤ – العملُ الصالحُ
٥ – الحياةُ المستقيمةُ	٦ – الجهدُ الصحيحُ
٧ – التفكرُ السليمُ	٨ – التأملُ الصحيحُ

هذه هي أسسُ العملِ للوصولِ إلى (الترقنا) وكلُّها بثمانيتها طرائقُ صوفيةٌ وهي طرائقُ خيّرةٌ بارزةٌ في صلاحها، من طلبَها وعملَ بها وصلَ إلى تلك النشوة، وتحرّرَ من الإثمِ والشقاء.

والمبدأ السابع منها أي (التفكرُ السليمُ) والثامن أي (التأملُ الصحيحُ) يقربان من العبادة، وقد يُظنُّ أنهما من العبادة. على أنّ بودا لم يكنْ غايتُهُ عبادةُ إلهٍ ما، أوْ البحثُ عنِ الإلهة، فطرائقُهُ جميعُها هيَ لإزالةِ الآلامِ، وللوصولِ إلى النشوة، وترفيعِ مستوى الإنسانِ منْ حياةِ الشقاء. فليستْ إذنْ هذه الطرائقُ طرائقَ تعبُّديّة، إنما هيَ أساليبُ لرفعِ النفسِ عنْ مستوى الحياةِ الدنيّةِ ذاتِ الشقاء.

الرُّهبَنَةُ:

وتقتضي هذه المبادئُ الثمانيةُ منْ يريدُ أنْ يصلَ إلى كمالِ الترقانا أنْ يتركَ الحياةَ الدنيويةَ التي يعيشُ فيها، وأنْ ينطلقَ إلى تلكَ القممِ العليا والفكرِ السليمِ، وأنْ يقيمَ على وجهٍ للوصولِ إلى الترقانا، وهذا ما حضَّ عليهِ بودا أتباعَهُ. فهاهُ التاجران – وهما أوّلُ رهبانٍ في دينه – وحضَّ أيضاً تلاميذَهُ الخمسةَ، فكانوا من أوائلِ رهبانه، وانطلقَ هو نفسُهُ في تركِ العالمِ والتبشيرِ بالحقيقةِ خلالَ ما بقيَ من حياته – وقد عاشَ فوقَ الثمانين – وكانَ لا يلجأُ إلى البيوتِ إلا زمنَ الشتاء، فيدخلُ عندَ الأمراءِ والملوك، ويبشّرُ بمذهبه، ثمّ يعودُ بعدَ انقضاءِ الشتاءِ إلى عيمانه، وفي الانفصالِ بالناسِ وإفهامِهم ذلكَ الدينَ بالرفقِ واللينِ. فـ(الرهبنةُ)

أقرب الأشياء إلى تحقيق دين بوذا. وقد أسست صوامع الرهبنة في أماكن متعددة من الهند، ولجأ الرهبان إليها، وتكون نوع من النظام الرهباني المحدد.

وشكا الناس بوعثه من أسلوب بوذا في هجران العائلة والأسواق والانقطاع عن الحياة، وكثرت الأرامل بين النساء بذهاب أزواجهن.

أما نظام الرهبنة فقد وضع وضعا دقيقا بعد عصر بوذا، على النحو التالي:

١ = لا يقبل بين الرهبان إلا من تقدم لامتحان دقيق.

٢ = وألزم الرهبان بلبس الثياب المصفر.

٣ = لا يوجد درجات أو طبقات بينهم، فهم متساوون جميعا، وفي ذلك حرب على مبدأ (الكاست).

٤ = أكبر الرهبان سنا يقرأ كل يوم على زملائه أقوال الاعتراف، ببدؤها بذكر الذنوب الأربعة الكبيرة، وهي (القتل، والزنا، والسرقة، والإعجاب بامتلاك قوة فائقة). هذه الذنوب إذا وقع فيها الرهبان طردوا من الصوامع، فهي ذنوب كبيرة لا تغتفر. وهنالك ذنوب أصغر ينبغي أن يبتعد عنها الرهبان، وهي: (شرب الخمر، وتناول الطعام في أوقات معينة، والرقص، والغناء، وحضور مشاهد الزينة والتعطر، واستعمال أدوات التمتزل المريحة، وأخذ المال).

ونستطيع بعد أن شرحنا مذهب البوذية - ويسمى الذرمة - أن نلحق به المبادئ الثلاثة الآتية: (ألق ببوذا، ألق بالشريعة، ألق بالجماعة).

= والمبدأ الأول - الذي هو الثقة ببوذا - يوحي لمعتنق المذهب وجوب الإيمان ببوذا إيمانا يجعل صاحبه ساترا على مذهبه.

= أما المبدأ الثاني فيجعله واثقا بالشرع الذي وضعه.

وينتج عن المبدأ الثالث أن على متبع البوذية أن يثق بالجماعة وبتفسيراتهم التي وضعوها للمبادئ.

الكُتُب الدِّينيَّة:

ولعلَّ قول المبدأ الثاني (الثِّقة بالشَّرع) يوحي بأنَّ الثِّقة يجبُ أنْ تكونَ بالكُتُب الدِّينيَّة التي فيها عرضٌ للشَّرع، هذه الكُتُب الدِّينيَّة كُتِبَت باللُّغة البالية، وهي لغةٌ قديمة، والشَّرعُ سُمِّي باسمها، فقيل (**الشَّرعُ البالي**) وهو يحوي ثلاثة أثبات:

الثَّبَتُ الأوَّلُ هو (الفيتايا):

وهو ثبتُ التَّلاميذ، ويحوي: نظامَ الرُّهبنة، ونشأتها، وتاريخ الرُّهبان الأولين من أتباع بوذا، وكيف تطوَّر أمرُهم.

وفيه إثباتُ لنظام الرُّهبنة اسمه (سنغا).

الثَّبتُ الثَّاني هو (الذامانا Dhamana):

وفيه مجموعةُ الوصايا ومجموعةُ الشَّرع البوذي، من أقوال بوذا ووصاياه – على ما يقال – على الأقل ما كان بعتقُه تابعوا بوذا في القرون الأولى من دينه، وفي هذا الثَّبت نجدُ المبادئ الأربعة، والمبدأ الثَّمن، والوصايا المختلفة.

الثَّبتُ الثَّالث:

هو الشَّرعُ والتَّعليقاتُ التي وضعها العُلماءُ البوذيون.

فرق البوذيَّة:

لم يتَّفق البوذيون كلَّ الاتِّفاق على نُصوص كُتُبهم.

وهُمْ أيضاً يختلفون في النَّظر إلى الدِّين نفسه، فقد تفرَّقوا إلى فرقتي (هينايانا = العجلة الصَّغيرة) و (مهايانا = العجلة الكبيرة).

= أمَّا (الهينايانا) فانتشرت في الهند الصِّينيَّة وجنوب الهند وفي سيلان (سيرلانكا) خاصَّة. وهي تتبع النُّصوص القديمة، محرصةً على الدِّين البوذي كما وضعه بوذا نفسُه، متمسِّكةً أصحابُها بالمبادئ الأصليَّة، ويحاولون أنْ يُصبِحوا كـ(بوذا) فيما يتَّبعونه من تعاليم، ويرون أنَّ الإنسان يجبُ أنْ يكون بوذا لنفسه،

وأنْ يصل إلى الترفانا بنفسه. فسعيهم فرديٌ يصلون به إلى الحقيقة، فيكتفون بذلك، ولا يقدسون عنفهم للأفراد الآخرين، ولا يؤمنون بالآلهة.

= وأمّا فرقة (المهايانا) فقدْ انتشرت انتشاراً كبيراً، وعدلت البوذية القديمة فجعلتها قريبة من فهم الأقوام التي اعتنقوها. ويحاولُ أتباعُ المهايانا اكتشاف ما اكتشفهُ بوذا نفسه، ثمّ تعليم الآخرين هذا الشيء المُكتشف. فهُم إذاً يكرّسون أنفسهم للحياة الاجتماعيّة، ويطمحون بالوصول إلى (الترفانا) لا للاستفادة الشخصيّة فحسب، بلْ لإفادة الناس أيضاً وتعليمهم. وعلى ذلك فهي أقلُّ فرديّة من الهينايانا، وهُمْ يؤمنون بقدسية أولئك الذين مارسوا سيرة بوذا وانتهوا إلى معرفة حقائقه وانكبوا على إفادة الناس بها، ويرى المهايانا أنّ في كُلّ نفس إنسانيّة ذرّة من بوذا يُمكنُ تنميتها بحيثُ يصلُ الشخصُ إلى درجة من القدسيّة. والواقعُ أنّ هؤلاء القديسين قد بلغ من اعتبار العامّة لهُمْ أنْ جعلوهم شبه آلهة يُعبدون، ولهُمْ الهياكلُ، ويُصلّى لهُمْ كصلاة البراهمانيين.

غيّرت هذه العجلة إذاً طريقة بوذا وتعاليمه، التي أخذت تضمحلُّ في بعض المدارس المهايانيّة حتى كادت أنْ لا يبقى لها أثرٌ.

وأساسُ العقيدة (المهايانية) هو نمطٌ كمثل سام خالد، أي نمطٌ بوذا نموذجاً مُطلقاً يظهرُ في القديسين في أجيال مُختلفة.

= وأمّا (النهايانا) فانتشرت في الصين، ذلك أنّ امبراطورا صينيّاً أرسل من أخضر له عالمين بوذيين، ترجما له إلى الصينيّة الكُتب المُقدّسة البوذية واطّلع عليها عُلماءُ بلاده، فإذا بالبوذيّة تنتشرُ في الصين في القرن الرابع والخامس للميلاد، ثمّ استقرّ الأمرُ عند الصينيين على الأخذ بمبدأ (النهايانا) وطوّروا مبادئها، فانتهوا من ذلك إلى عقيدة فيها هو (عقيدة وجود الآخرة) وفيها السعادةُ للسُعداء، والعذابُ لغيرهم، عذابٌ يُقصدُ منه تخليصهم من الآثام ورفعهم.

هذا والفرقتان تؤمنان بـ:

= المبادئ الأساسيّة الأربعة.

= وبالبلدا المقدّس.

= وتحضّان على عدم الشرور.

= وتحضّان على العفو عن الأعداء.

= وتلحّان بصفة خاصّة على أهميّة الثواب الطيّبة الأخلاقيّة.

= وتلحّان على وجوب التسامح.

خامساً – الهندوسيّة

بعد أن أسّس (بوذا) دينه وانتشر في عصره منذ القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد، ونسبيّاً بسقوط قيمة الكهنة. مما حدا بالكهنة إلى الانتصار لهيبتهم فقاموا بمحاربة البوذيّة حرباً شعواء لا هوادة فيها. فاضطرت البوذيّة إلى أن تنحني إلى التصدّي، واضطرّ (البراهمانيّون) إلى أن ينظروا نظرة جديدة في دينهم القديم، ويضعوه بشكلٍ مبسّط قريب إلى العامّة ليفهموه. فوضعوا الديانة التي سمّيت (**الهندوسيّة**). والتي يمكن شرحها فيما يلي:

(البراهمان) في الديانة الهندوسيّة هو شيءٌ لا شخص له. وقد ظهر في سبعة آلهة أهمها ثالوث (**Trinity**) الآلهة هم: (براهما) و(فيشنو) و(شيفا).

و(**براهما**) هو شخص الآلهة، وهو إلهٌ أحمر اللون له أربعة رؤوس، كان يسبح في بيضة، ثم كسر البيضة فأخرج من نصفها السماء، ومن نصفها الآخر الأرض، وتحقق قسمٌ منه بأخذ التصفين والقسم الثاني بالآخر. فالقسم الأول منه أصبح ذكراً، والآخر أنثى، ومن القسمين خلق الحيوان والإنسان والكون، وبعد أن أتمّ الخلق انسحب وأصبح بعيداً، ولذلك فإنّ عبادته خفّت وتضاءلت،

وفقدت شعبيتها، فليس لبراهما من المعابد إلا القليل.

أمّا (فيشنو) فإنّه كان يحلّق في السماء على أجنحة طائر سحريّ. وهو شعبيّ له أثره عند المتعبّدين، ويعتقد أنّه ينقذ الأرواح بالتقمّص، ويُنزوله إلى الأرض، وله تقمّصات عديدة، وثامن تقمّص له هو (كريشنا) ذلك الإله الجذّاب الذي حياته حياة شعرية تشبه الأغنية.

والإله الثالث - أي (شيفا) - هو إله الموت والخصب، في يده إماتة الطبيعة وإحصالها، وهو غريب في أطواره، قاس، وشهوانيّ، ينتقم مرة، ويتنزّه مرة.

وهنالك آلهة أخرى أقلّ أهمية مما وصفنا، وعددها كثير، وقيل: إنها بلغت ثلاثة ملايين إلها. وهي تتكوّن من كلّ شيء، فهي من الحيوانات، ومن البقر، والفرزة، ومن الأشجار.... ومن غير ذلك.

وهذه العبادة يعتقدها على الأغلب الناس من الطبقات الدنيا.

ولعلّ سبب انكباب الطبقات الدنيا من الناس على عبادة الحيوانات وبعض النباتات هي أنّه تثبت في أذهانها أنّ الآلهة العظيمة الأخرى منطلقة إلى أعمالها ولا يمكن الوصول إليها إلا في المعابد فقط، فالرجوع عنهم إلى الآلهة الصغيرة يظهر عند هذه الطبقات أقرب، ويعتقدون أنها لساعدهم في حياتهم اليومية.

فـ(البقرة) بين هذه العبادات ذات مكانة خاصة وهي مقدّسة يجب أن لا يُمس بسوء مهما فعلت هي من سوء. ويقول بعض الهندوسيين: (إنّ البقرة قدّست للنفع الكبير الذي ينتج منها، فهي تدرّ الألبان، وتُغطي السماد) على أنّ هذا الكلام تأويل للواقع أكثر مما هو حقيقة.

والى جانب البقرة يقدّس الهندوس (الثور) لأنّه بركبه (الإله شيفا).

على أنّ (البقرة) و(الثور) ليسا إلهين عند الهندوس، وليس لهما صفة الالهة، إنّما هما مقدّسان لهما حقّ شخصيّ بيّن صحّ هذا التعبير، فلا يمسان بسوء،

ويبجّلان ويُقدّسان.

واختلافُ الآلهة عند الهندوسيّين مشؤوءٌ على الأغلب من اختلاف اليهود في قبائلهم وعروقهم ومستواهم. ففكرةُ (الكاياست) عندهم تأخذ مكانها في الديانة الهندوسيّة، وتنتهي إلى أنْ تشدّدَ على فكرة اجتماعيّة خاصّة، وهي أنّ أفراد الطّبقة العليا يجبُ أنْ لا يلمسوا أفراد الطّبقة الدّنيا، تكرّ غاسي - فيما بعد - ثائرٌ على تلك الفكرة ثورة قويّة، ثُمّ إنّ جمهوريّة الهند حاليًا أصدرت قانونًا يُبطلها ويشجبُها.

تلك هي آلهة الهندوسيّين وما يحومُ حولها من أفكار.

إنّ القضيّة المهمّة عند الهندوسيّين ليست الاعتقاد بدين أوْ آلهة، بلْ تنحي بأخذ مكانة الأهمّ عندهم هو صفةُ المعيشة الهندوسيّة والتقليديّة، واتّباع أصول تلك المعيشة، والقيامُ بالقربان والطّقوس التي تتطلّبُها.

وحياةُ الفرد عندهم مطبوعةٌ بطابع العبادات والطّقوس ذات الألوان المختلفة التي تلازمُ من المهد إلى اللّحد، بلْ هي تبدأ من أشهر حمله الأولى حتّى بعد وفاته بعهد بعيد، وهي عباداتٌ تدعي أنّها تضمنُ له سلامته وأمنه، وتذكّرُه دومًا بأنّه عضوٌ في المجتمع الذي يعيشُ فيه، ويجبُ أنْ يقوم بما عليه نحوه. وهي شعائرُ تظهرُ في معظم المناسبات؛ من ولادة، وزواج، وموت... وغير ذلك، وبأنْ على رأسها الحجُّ إلى الأماكن المقدّسة، وهي ترمي بصفة خاصّة إلى أنْ تجعلَ المجتمع هو الأصلَ الذي تبنى عليه حياةُ الهندوسيّين. والمجتمعُ مُقدّمٌ على الدّولة عندهم، وحياتهم الفرديّة والعامّة يجبُ أنْ تتطبّع بما يريدُ المجتمعُ أنْ تتطبّع به.

وبعدُ فإذا كانت الآلهةُ العديدةُ من الهندوسيّين والمجتمع المهيمن على حياتهم تميّزُ دياناتهم تميّزًا خاصًا، فإنّ ما يميزها أيضًا ويضفي عليها طابع القوي الغالب هو الاعتقادُ بـ(التقمّص)، وذلك فلسفةٌ دينيّةٌ لها الأثرُ الأكبرُ عند اليهود في تفكيرهم

وعقيدتهم.

فهم يرون أنّ هنالك روحا عامّا ذات جوهر واحد مهما تعدّدت أشكالها الظاهرة، وهذه الروح ليست خاصّة بالإنسان وحده بل تعمّ الحيوان أيضا. وهي تنتقل من الحيوان إلى الإنسان، فالإنسان في الهندوسيّة ليس كما في الديانات السماويّة كائنا متميّزا عن غيره من الحيوانات من أنّ تلك الحيوانات لا تمتلك روحه، بل الهندوس يرون أنّ للحيوانات روحا هي من نفس روح الإنسان، ولا تختلف عنها إلا من حيث تطوّرها خلال مراحل انتقالها بأثر (الكرما).

ويسعى الهندوسيّون إلى أن يستفيدوا من هذا التطوّر، ومن (الكرمة) التي تدخل الأرواح من جسم نُسخت فيه إلى جسم آخر تولّدت فيه ثانية بشكل مختلف عن شكل الجسم الأوّل.

هذا ويستعين بعض الهندوسيّين بطريقة في جلب منافع (الكرمة) وهي طريقة (اليوغا). ويقصدون بهذه الطريقة أن يعجّلوا اللقاء بالروح الشاملة، ويمارسون في سبيل ذلك أعمالا حسبيّة، ويقومون بتضحيات كثيرة، ويتعرّضون للآلام، ويعتقدون أنّ طريقة (اليوغا) تفيد في الحصول على التقمّص والتطوّر من أدنى إلى أحسن.

خلاصة القول في الهندوسيّة:

وجملة القول: إنّ الديانة الهندوسيّة هي مجموعة عبادات، وطقوس، وآراء، وعقائد فيها المظاهر الابتدائيّة من التفكير والعقيدة. وفيها الآراء الفلسفيّة.

وطابعها الأصليّ أنها قوميّة هندية ثم تسع إلى أن تجذب إليها أناسا من خارج الهند، بل بقيت هندية خالصة.

سادساً – ديانةُ السِّيخ

واضع الدِّيانة السِّيخية رجلٌ اسمهُ (نانك)، وناناك هندوسيٌّ ولد حوالي عام (١٤٦٩ م) وتوفي عام (١٥٣٨ م) نشأ في عائلة مُتوسِّطة فقيرة، وتعلَّم أوَّل الأمر على مُعلِّم مُسلم، فعرف الإسْلام عن طريقه. ثُمَّ انْصرف بعيده من المُعلِّمين، وأراد والدهُ أنْ يجْعل منه تاجراً غنياً عن طريق التِّجارة، لكنَّهُ أبى وانْقطع بشروته وماله إلى الفُقراء، وخرج من بيته فعمل خادماً عند شريف من شُرفاء المُسلمين، ولمَّا بلغ الخامسة والثلاثين من عمره رأى رؤيا كأنَّ يداً تمدُّ إليه بكوز ماء، وكأنَّ أبواب الجنَّة قد فُتحت لهُ، وصوتاً يناديه قائلاً: (ناناك وردَّد اسمي، واجعل النَّاس يردِّدونه، وثابرْ على السَّير على الصِّراط المُستقيم في الإسلام، والصَّدقات والطَّهارة، وذلك خدمة لي ولاسمي وذكْري). فجعل هذا القول وسار به يدعو إلى دِين جديد، ويرحل من مكان إلى مكان، حتَّى يُقال أنَّهُ بلغ مكَّة. ويقال: إنَّ كُلاً من المُسلمين والهندوسيِّين طالبوا بجثَّته حين وفاته، تأكيداً لصلته بهم.

ونُذكِّر بهذه المُناسبة أنَّ جثَّة وجدت على شكْل كتلة من الأزهار.

بعدَ (ناناك) في ديانة السِّيخ – التي – أسَّسها أوَّل مُعلِّم (GARA) تبعهُ تسعة مُعلِّمين آخرين، آخرهم (GOVIND SING) من أواخر القرن السَّابع عشر.

حاول (كوفيند سينغ) أنْ يرفع من مكانة السِّيخ إلى طبقة المُقاتلين، والواقع أنَّهم أصبحوا مُحاربين من طبقة قويَّة، حتَّى أنَّهم أتعبوا الإنكليز في حروبهم لهم، ولمَّا انتهت حربهم مع الإنكليز عمد هؤلاء إلى الاستفادة منهم في الجيش، فكانت أحسن عناصر الجيش منهم.

عقيدةُ السِّيخ:

يمكنُ أنْ تلخَّص عقيدة السِّيخ بأمرين: (وحدة الإله) و(أخوة النَّاس).

= فانه عند تسبيح واحد أخذ.

= والناس متآخون، بل الأديان جميعها دينٌ واحد.

وقد تأثر دينُ السيخ بدينين آخرين، فقد تأثر بـ(الهندوسية، وبالإسلام):

= أخذ من الهندوسية: فكرة التقمص، وفكرة التزهد، وأن العالم واحد وهو (MORAGA). لكن (ناناك) نبذ فكرة التزهد، والرهبنة الموجودة في الهندوسية، ونبذ فكرة الحج والغسل في الأنهار المقدسة، والتسول والبطالة، واستكر الكاست (طبقات الناس).

- وأخذ من الإسلام: التوحيد توحيداً مطلقاً خالصاً تاماً، وأخذ منه فكرة الإله وصفاته، فالإله رحيمٌ رحمانٌ، محبٌ لعباده، هدفُه للإلام، يحبُ الفقراء ويعطف عليهم.

وأخذ من الإسلام أيضاً بعض النواحي الأخلاقية، فنهى عن قتل الأولاد، وعن دفن الزوجات مع أزواجهم، وعن زواج الأولاد من لم يدرك سن البلوغ.

هذا ودين السيخ يرى أن في كل نفس شيئاً من الإله، ووجوده في هذا العالم إنما هو تجربة للرجوع إلى الإله والاتحاد به.

مظهر السيخ وعباداتهم:

= يتميز السيخ من حيث مظهرهم الخارجي بـ(الشعور الطويلة، واللحى المسدلة).

= ومن عباداتهم: النهوض باكرا، وأخذ حمام بارد، والتلفظ في اسم الله، والصلوات في الصباح والمساء بتلاوة بعض الأقوال.

يبلغ عدد السيخ في الهند ما يوف على عشرة ملايين نسمة، يقيمون في ولاية البنجاب. وقد فضل السيخ حين تقسيم شبه القارة الهندية بين دولتي (الهند والباكستان) أن يلتحقوا بالجمهورية الهندية.

الفصلُ الثّالث

من دياناتِ الصين

أوّلاً – الطاويةُ

ثانياً – الكَوْنفوشيّة

لا يوجدُ في اللُّغة الصينيَّة كلمةٌ واضحةُ المعنى بيِّنةُ الفكرة تدلُّ على ما يقابلُ كلمة الدِّين في اللُّغات الأخرى، والكلمةُ التي يستعملونها للدَّلالة على ما يقرُبُ من الدِّين هي كلمةٌ لعلَّ ما يقابلُ لفظ (المذهب) الغربيَّة.

والواقعُ أنَّ الدِّين عند أهل الصِّين ليس دينًا بمعنى ما تعرفُه من لفظ الدِّين، إنَّما هو سلوكٌ إنسانيٌّ، وفلسفةٌ أخلاقيَّة، ونظرةٌ إلى الحياة الاجتماعيَّة، وتنظيمٌ لتلك الحياة، فيكفي إذن حين البحث في أديان الصِّين عامَّة أن ننظر إلى تلك الأديان على أنَّها نهجٌ أخلاقيٌّ، وسلوكٌ وطريقةٌ ومبادئ اجتماعيَّة.

وكان في الصِّين قبل تاريخها المعروف ديانةٌ فيها عبادةُ مظاهر الطَّبيعة، ولا سيَّما السَّماء التي كانت تُعبدُ وتُقدَّسُ ويُقدَّمُ لها القربين، وكان في عبادة الصِّينيين القديمة طقوسٌ كثيرةٌ معقَّدةٌ أُضيفت إليها طقوسٌ أخرى من الأديان التي خلفت بعد ذلك فتشابكت وأصبحت على غاية التَّعقيد، والأديانُ اليوم في الصِّين هي (البوذيَّة، الطَّاويَّة، والكونفوشوسيَّة) إلى جانب الإسلام. وقد سبق لنا الحديث عن البوذيَّة في سياق أديان الهند الكبرى، وذلك بحكم النَّشأة. بقي أن نتعرَّف على الطاوية والكونفوشية.

أولاً – الطَّاويَّةُ

تُنسبُ هذه الدِّيانةُ إلى فيلسوف اسمه (لاأوتي) وشخصيَّةُ هذا الفيلسوف ليست شخصيَّة واضحة في التَّاريخ، ويذهبُ عددٌ كبيرٌ من علماء الأديان إلى أنَّ تلك الشَّخصيَّة خياليَّة، وأنَّ قصَّتَه موضوعة، والقصَّةُ هي:

وُلد (لاأوتي) نحو عام (٦٠٤ ق.م) وعمل خازنًا للوثائق عند الإمبراطور، ثُمَّ تركَ عمله وقد شاخ، وقصدَ أن يخرُجَ خارج المملكة، فلمَّا كان على حُدودها استوقفه موظَّفٌ من موظَّفي الحدود، وألحَّ عليه بعض الأسئلة، فانكبَّ يُحرِّرُ

جوابه، ثم قدّم إلى هذا الموظف ما حرّره في كتاب سمّاه (تاه وفي كتمٍ) ومعناه (شريعة الصراط والفضيلة) تقولُ بعضُ الباحثين: إنّ هذا الكتاب حُرّر في القرن الثالث قبل الميلاد، وهو كتابٌ معقّدٌ كلّ التعقيد، متناقضٌ في فصوله وأجزائه، بصعب فهمه، وقد أتى (شانغ تسي) فوضّحه وفسّره.

وبعدُ فلا نستطيعُ أنْ نجزمَ برأي معيّنٍ عن مؤسّس دين الطاويّة، بل نترك شأنه للتاريخ المقبل.

أمّا كلمةُ (طاو) التي أُدخلت في اسم تدّين وفي اسم كتابه المقدّس فهي كلمةٌ لا يُمكنُ تحديدُها، بل إنّ الكتاب المقدّس حين ذكرها اعترف بأنّ مفهومها الأصليّ الذي وضعت له لا يُمكنُ تحديده ولا تصوّره، وقد أفاد هذه الكلمة:

= ما يقابلُ معنى (الصراط) بالعربيّة.

= وقد تعني (مجرى الحياة) و(مجرى الكون ونظامه وتتابعه).

= أو قد تعني (القوّة الكامنة في الطبيعة أو خلفها والتي يسري بها الكون). وهي قوّة تقولُ التديّنةُ عنها أنها أوجدت الكون من لا شيء، ونستطيعُ أنْ نجعلَ من الكون مرّة أخرى لا شيء أيضا، فتعيدَ ما كانَ إلى ما كان.

وليس للإله ذكرٌ في كتب الطاويّة إلا مرّة واحدة، وقيل إنّها وجد بعد الطاو.

مُختصرُ القولِ في الطاويّة:

أنها مذهبٌ يدعو إلى ترك الأمور تسري في أعنّتها دون أنْ يبذل الإنسانُ جهده لتغييرها، ويخيّل إليّ أنّ الذي يدعو لذلك هو أنّ هنالك قوّة تسيّر الكون، وهي الطاو، فلندعها تسيّره، ولنعتمد عليها.

ويقدّم عُلماءُ ذلك المذهب مثالا على ترك الأمور تجري، فيقولون: انظر إلى الماء كيف يجري من الأعلى إلى الأسفل، فيخضع لتلك القوّة التي تسيّره،

والماء تكمن فيه قوة هائلة، فهو يستطيع حينما أن يقلع الصخر من مكانه، فلتكن كالماء تجري مع الطاو وتسير وتخضع لها.

ويصورون معتنق المذهب تصويرا يجعلونه فيه قابعا في بيته، مكتفيا بما عنده، لا يبحث عن الجديد من الأمر، ولا يطلب الكثير، ويطلبون من الحكومة أن تكون محدودة ضيقة الجهاز لا متسعة ولا باحثة عن التطور والاتساع، والمثل الأعلى عندهم هو التحرر من الشهوة والتجربة الحسية. وذلك بالتأمل الصوفي.

وقد أخذت الطاوية خلال مراحل تطورها من البوذية والكونفوشية ووضعت مبادئ عشرة نعتنقها وهي:

١ - إجلال البنين لآبائهم وأجدادهم.

٢ - الإخلاص للإمبراطور والمعلمين.

٣ - المعاملة الطيبة مع كل المخلوقات.

٤ - التسبح واستنكار السلوك السيء.

٥ - تضحية النفس في سبيل مساعدة الفقراء.

٦ - تحريم الزنى.

٧ - غرس الشجر.

٨ - إقامة الآبار وفتح الطرقات.

٩ - تعليم الجهال وتحسين الأحوال.

١٠ - دراسة الكتب المقدسة، وتقديم القرابين للآلهة.

أما **عقيدتهم في الآلهة** فهي عقيدة على رأس آلهتها مثلث من الآلهة، هم: (لاوتسي)، و(الإمبراطور جادي) وهو سلطان الكون عندهم، ثم أول كائن في السماء، على أن (الطاو) تبقى مقدمة على الآلهة لأن فيها سر الكون.

أما **فلسفة الطاوية** فمعقدة غاية التعقيد، غير بينة المعالم، على أنها بعد أن

تدرّجت في تلك الأزمان الكتب إلى البحث عن (إكسير الحياة) وأصلها، وجواهرها، ومادتها الأولى، وكيفية الوصول إليها وشحنها في نفوس الناس وإطالة العمر، وقيل: إن أحد علمائهم وصل إلى ذلك الإكسير واكتشفه.

وفي فلسفة الطاوية التفريق بين قوتين كونيتين:

= إحداهما موجبة وهي (يانغ) المبدأ المذكر وهي (السماء).

= أما القوة السالبة فهي (ين) المبدأ المؤنث وهي (الأرض).

وباتحاد القوتين (يانغ) و(ين) خرج العالم وعم الكون.

والبحث عن إكسير الحياة بدأ عليه الطاويون ويشتغلون فيه معظم وقتهم، بل إن رجال دينهم وهم مقسومون إلى قسمين:

= الرهبان الذين يقيمون في الصوامع ويتعبدون بالتأمل وبممارسة الفضائل العشر.

= والقسيسون الذين يقيمون بين الناس.

كل من هذين القسمين من رجال الدين يمارس العلوم الروحية وكيمياء السعادة، ويتدخل في حياة الناس، فيعلمونهم على الطريقة الروحية، ويسعون في زواجهم على تلك الطريقة، بل يحاولون اكتشاف الصانع بها أيضا، وهي إذن تلعب في حياتهم دورا مهما.

والطاوية دين عدد عظيم من أهل الصين يدينون به لا على الطريقة التي ذكرناها تماما بأصلها وتطورها التاريخي، بل على ما يفهمون منه انتهت إليه عقولهم ومواهبهم.

ولقد أصبحت الطاوية عام (٤٤٠ ق.م) دين الدولة للصين، ثم بقيت في عام (٦٦٦ م) تقدمت على الكونفوشية وتفوقت عليها في مكانتها في الدولة، ثم عادت وفقدت المنزلة الأولى التي احتلتها.

ثانياً – الكَونفوشيَّة

الكونفوشيَّة أو (الكونفوشيوسية) مذهبٌ يهتمّ بالدَّولة والعائلة، فيعظّم شؤونها تنظيما أخلاقيّا، فهو إذا ليس دينا بالمعنى الذي نفهم، وليس فيه آلهة أو إلهها، وليس فيه هياكل ومعابد تضمُّ بين جُدرانها كهّان، إنما هو منظّمٌ اجتماعيٌّ أخلاقيٌّ.

واضع هذا الدّين – إنْ صحّ استعمالُ كلمة الدّين عليه – هو **كونفوشيوس**، الذي عاش في القرن السادس والخامس قبل الميلاد، واتّفق عُلماءُ الصّين على أنْ يُحدّدوا تاريخ ميلادهُ بسنة (٥٥١ ق.م) وتاريخ وفاته بسنة (٤٧٩ ق.م) على أنّهُ لا يوجدُ شيءٌ في المصادر القديمة والمعاصرة لكونفوشيوس يُثبِتُ هذين التّاريخين.

وحياةُ كونفوشيوس دخلت فيها الأسطورةُ فلعبت بعضَ الدّور، ولئن لم تزيّنها وترفعها وتطيلها حلاء النُّبوّة أو الالهة إلا أنها أحدثت فيها بعضَ الجديد، والباحثون المُحدثون لا يقبلون بترجمة كونفوشيوس كما وردت في المصادر الصّينيّة المتأخّرة عن زمانه، بل يردّونها على الشّكل الذي ستنتجونها لهُ من كتابات تُعدّ من أساس الدّيانة الكونفوشوسيّة، وهي التي نسمّي بـ(المختارات) أي مختارات من أقوال كونفوشيوس وأحاديثه وأفعاله، وسنعرضُ لحياة كونفوشيوس كما ترويها المصادرُ الصّينيّة، ثمّ نعودُ إلى ذكر حياته كما تراها المصادرُ الغربيّة الحديثة.

كونفوشيوس في المَصادرِ الصّينيّة:

تعطي المصادرُ الصّينيّة (كونفوشيوس) حياة عادية، لكنّها حياة إنسان ذي أثر كبير في محيطه من النّاحية الإداريّة والاجتماعيّة.

نشأ كونفوشيوس في عائلة نبيلة فقيرة، وكان والدُه محاربًا، فرأى على

الآداب السامية والتهذيب، لكنه نشأ على الفقر، ولد في مقاطعة (لو) في عصر كانت الحروب فيه كثيرة، وكان الحكام مستبدين على الرعية، وتقدم كونفوشيوس تقدما سريعا بذكائه، وحصل على وظيفة عمل فيها، ثم لما بلغ سن العشرين أسس مدرسة أو مجمعا علميا غايته كشف الحكمة واشتراكها في الحياة، وأدار ذلك المجمع حتى سن الرابعة والثلاثين، وجمع حوله عددا من التلامذة، ثم سافر وقضى عشرة سنوات في سفره، وعاد بعد أن علم كل من أراد العلم، ولما عاد انقطع إلى التعلم والتعليم أيضا.

وفي عام (٥٠١ ق.م) عين الأمير (ليغ) وهو حاكم مقاطعة (لو) التي نشأ فيها، عين عاملا له على مدينة صغيرة، فقام في عمله في تلك المدينة بشكل حاز به إعجاب الأمير فعينه وزيرا للأشغال العامة، ثم وزيرا للعدل، وفي وزارته نظم الأمور تنظيما رائعا، بحيث أصبح مثالا يقتدى به، وبحيث سارت شهرته فأقبل الناس عليه من أرجاء العالم الصيني يشاهدون أعماله ونظامه، وساد العدل في زمانه وقوي سلطان الحكومة، واضطر الأشرار إلى الاختفاء خجلا من أعمالهم، وأطاعت النساء أزواجهن، وساد الخير والبركة.

لكن الأمور ما قدر لها أن تستمر، فقد وشى الواشون به، وأغروا واستعملوا الهدايا ليبعدوه عن السلطان، فأرسلوا إلى حاكم (لو) ثمانين جارية جميلة وغانية - أو عشرة حسب بعض الأقوال - وقبل هذا الحاكم تلك الهدية وأبعد كونفوشيوس عن عمله، فخلا الجو لدائرة أخرى للواشين يعبثون كما يريدون.

وزحف كونفوشيوس في أرجاء الصين مرة أخرى مدة اثنتي عشرة سنة، يعلم ويدرس، ويعيش من عمله وتدريسه، وطلب إليه الحكام أن يقبل الوظائف عندهم، لكنه لم يكن يقبل ذلك، لأنه لم ير حاكما يرضى به وبإصلاحاته، وقد قال: لو رأيت أميرا يسلمني الحكم مع الحرية والسلطان الكافي لأصلحت الأمور

جميعًا بمدة لا تتجاوز ثلاث سنوات.

وبقي كونفوشيوس في رحلته حتى استدعاه حاكم (لو) فعاد إلى بلده سنة (٤٨٣ق.م) تلك السنة التي توفي فيها بوذا، على أنه لم يتوقف أي عمر، بل انقطع إلى النظر في الكتب الدينية القديمة، فوضع هذه الكتب وضعًا جديدًا وشرحها، ثم وافته منيته عام (٤٧٩ ق.م) فاستقبل أجله باسمًا، ولم تظهر عليه خشية أو خوف، ولم يبك صلاة ما أو تعويذًا، وأصبح مكان دفنه مزارًا ومحجًا لأهل الصين.

هذا ما تقوله المصادر الصينية المتأخرة عن زمانه.

كونفوشيوس عند علماء الدين المقارن المحدثين:

للباحثين المتأخرين في الأديان رؤية مختلفة لحياة كونفوشيوس عما قدمته لنا المصادر الصينية. وذلك لأنهم يرجعون إلى كتاب (المختار) من أقواله فلا يجدون فيها ما يدل على أنه تولى المناصب العالية، أو قام بالأعمال الحكومية المشار إليها، ويرجع أولئك الباحثون إلى تلك (المنتخبات) فيستخلصون منها مسيرة حياته وفق السياق الآتي:

كانت الصين عندما ولد حالة حرب وخصام بين الحكومات الصينية المتعددة. وكان الحكام ظالمين يضطهدون الشعب، والخراب سائد، فوضع كونفوشيوس أسلوبا للأخلاق الاجتماعية والحكومية، أسلوبا يحفظ السلام ويعيد الطمأنينة، ويعطي الشعب حكمًا دائمًا عادلًا، وجمع حوله تلاميذ يعلمهم مبادئه، وحكمته، وهم من أولاد النبلاء ومن أصحاب المناصب العليا، فعلمهم فنون التربية الصحيحة، وطلب إليهم أن يجعلوها هدفًا في أعمالهم.

أما كونفوشيوس فلم يكن له منصبٌ حكوميٌّ عالٍ، بل كان معلمًا يعيش

مما تقاضاه من تلاميذه، وزخل وعمره (٥٥) سنة رحلة استغرقت عشر أعوام، وخل إلى المقاطعات الصينية. ولم يستطع في رحلته أن يفوز بوضيفة عالية بطبق فيها مبادئ حكمته وأصول المجتمع الذي يفكر فيه، ، يقوم من طريقها بالإصلاحات التي كانت هدفه.

تلك حياة كونفوشيوس كما تظهر من مقتطفات أقواله وأحاديثه وأفعاله، ولكن المصادر الصينية أرادت أن تشير إلى أن هذا الفيلسوف لم يحط الرأي فحسب، بل وضع هذا الرأي موضع التطبيق، ونجح في تطبيقه، فهو مثال يحتذى به.

وعلى كل حال فليس عدم تمكنه من إجراء إصلاحاته يقلل من أهمية ما أوجد من فكرة عن الإدارة والنظام والأخلاق.

فكرة عامة عن الكونفوشية:

إذن فالكونفوشية هي أسلوب أخلاقي لإدارة المجتمع بأجزائه المختلفة من عائلة وحكم، والواقع أن الكونفوشية لا تنظر إلى الدين نظرة الأديان الأخرى إذ إنه مذهب ليس فيه نظرة إلى كائن أعلى، وإلى يوم آخر، فالذي يهم كونفوشيوس هو إصلاح المجتمع الذي كان يعيش فيه، وهو لا ينظر إلى الإنسان إلا على أنه مخلوق اجتماعي له صلات اجتماعية، وله واجب اجتماعي. هذا الواجب الاجتماعي وتلك الصلات الاجتماعية يجب تنظيمها بحيث يسود السلام وتستقر الطمأنينة في النفس، ويسود العدل ويتم الحق.

وترى الكونفوشية أن الإنسان يربطه بأخيه الإنسان صلات تسمى (جين) ويعنون بها ذلك العطف المتبادل بين الإنسان والإنسان الآخر، وهذا العطف يكون على صفات خمس مبنية على صلات بين أنواع خمسة من الناس، هي:

١ – صلة الحاكم بالتابع (الرعية).	٢ – صلة الأب بابنه
٣ – صلة الأخ الكبير بأخيه الصغير	٤ – صلة الزوج بزوجته
٥ – صلة الصديق بصديقه	

هذه الضروب الخمسة من الصلات تُبنى على ما يسمُّونه بـ (لي)، و(لي): هو مزيجٌ من السُّلوك ومن التقديس والاحترام.

وفي هذه الصلات درجاتٌ من الناس هي درجة الأعلى ودرجة الأدنى، فـ(الحاكم أعلى من المحكوم)، و(الأب أعلى من الابن)، و(الزوج أعلى من الزوجة)،... وهكذا).

والأدنى يجب أنْ يعامل الأعلى بنوعٍ من الاحترام الزائد الذي يكاد يبلغ حدّ التقديس، وأنْ تكون أعماله ساترة سيرة فيها سلوكٌ مُعيّنٌ وحركاتٌ معيّنة.

على أنّ الأعلى إذا أراد أنْ يحصل على التقديس من الأدنى وجب عليه أنْ يعامل الأدنى معاملة فيها الاحترام والسلوك الحسن.

فالتقديس لا يأتي عن طريق الضغط والإكراه، إنما يأتي بشعور يدب النفس عن طريق المعاملة الحسنة، وعن طريق الاقتداء بأصحاب السلوك الحسن. وعلى ذلك فالحاكم هو المثال الذي يُقتدى به للتشبُّه، فيجب أنْ يكون مترفعًا كلّ الترفع لا يتدنى للؤم أبدًا، وأعماله يجب أن تكون خاليةً من كلّ ما يعرّض للنقد.

وترى الكونفوشية أنّ هذا النظام من التقديس والاحترام والسلوك الحسن والإدارة العادلة تؤدي مع الزمن إلى توحيد الإنسانية والتساوي بين الناس، ولكن يجب تأجيل ذلك أكثر ما يمكن فلا يأتي ذلك اليوم إلا بعد أنْ تسود الفضيلة تمامًا وتستقرّ الأخلاق، ولكي تستعجل هذا اليوم يجب علينا أنْ نصحّح الألقاب.

والسؤال: ماذا يعني تصحيح الألقاب؟

يعني أنه يجب أنْ لا يُعطى لعمل من الأعمال أو لإنسان من الناس لقبٌ لا يستحقّه، يجب أنْ يُمتحن صاحب العمل حتى إذا اجتاز امتحانه بسلوكه وأعماله ومعرفته عُهد إليه بذلك العمل الذي له لقبٌ معيّنٌ، فمطابقة الألقاب لأحوال الناس

أساسُ في الكونفوشية، فالملكُ مثلا يجبُ أنْ لا يُسمّى ملكا إذا كان يضعُ الضرائب المرهقة على الناس.

وكان الحكّامُ والولاةُ والموظفون يجتازون امتحانا معينا على أساس ما ورد في الكُتُب الكونفوشية، حتى إذا اجتازوا ذلك الامتحان بنجاح أسندتْ إليهم الوظائفُ وألقابها.

* الكُتُب الكونفوشيّة:

يظهرُ مما تقدّم أنّ كونفوشيوس يهتمُ اهتماما خاصّا بالحكومة وبولاة الأمر، ويعتقدُ أنّ أعمالهم أو قسما كبيرا منها يجبُ أنْ يتولاهُ المثقفون العارفون الذين يأخذون ثقافتهم من الكُتُب الكونفوشيّة.

ويرى كونفوشيوس أنّ الإنسان يصبحُ حكيما عاقلا إنْ تدارس الكُتُب وتلقّى معلوماتها على يد أستاذ قادر ماهر. فالمعرفةُ إذن عنْدَ كونفوشيوس أصلٌ من الأصول في الحكمة والإدارة، ولذلك وجدنا خلال تاريخ الصّين إجلالا للعلم وتتبّعا له وتدارسا لأجزائه، والكُتُبُ التي تُعطي الحكمة وتمكّنُ الإنسان في المعرفة وتجعله قادرا على أنْ يتولّى شؤون الناس هي نوعان من الكُتُب:

= النّوعُ الأوّلُ: الأصولُ الخمسةُ القديمةُ.

= النوعُ الثاني: الكُتُبُ الأربعةُ المُنتخبةُ.

والأصولُ الخمسةُ التي يعتمدُ عليها الكونفوشوسيون هي كتبٌ قديمةٌ أعاد النظرَ فيها كونفوشيوس، وأصلح ما فيها ووضعها بصيغتها النّهائيّة، وأضاف إليها كتابا من عنده، فأصبحتْ خمسةً وهي:

١ - كتابُ (الوثائق التاريخيّة): وهو كتابُ خطب وأعمال رسميّة وآثار لقدماء أباطرة الصّين.

٢ - كتابُ (القصائد والشّعر): ويحوي (٣٠٥) من الأغاني القديمة الرّسميّة الدّينيّة.

٣ – كتابُ (التبدّلات): وهو كتابٌ لهُ منحى صوفيًا، فيه ذكرٌ لما يقعُ في العالم من تبدّلٍ وتغيرٍ قائم على التميز ويعتمدُ الطاؤيون على هذا الكتاب كثيرًا، وقد أخذوهُ عنْ الكونفوشوسيّة.

٤ – كتاب (القُداس والحفلات): وهو يذكرُ وينظّمُ الحفلات الرّسميّة وأصولها.

٥ – كتابُ (حوليّات الربيع والخريف) وهو كتابٌ قيل إنّهُ توحيدٌ من الخمسة الذي وضعهُ كونفوشيوس لنفسه، وضمّنهُ التّاريخ الذي حدث منذُ (٧٢٢ ق.م) إلى (٤٨١ ق.م).

هذه هي الأصولُ الخمسة، ويرى من تعداد أسمائها أنّها تتبعُ تقديم، ولمّا به، ونضعه الوضع الذي ارتضاهُ كونفوشيوس. ويظهرُ فيها كونفوشيوس بمظهر الآخذ بالتّراث الذي بيّنَ يديه والمنظّم له.

أمّا الكتبُ الأربعةُ التي تضافُ إلى الأصول الخمسة فهي ملحقةٌ بتلك. وفيها (آراءُ كونفوشيوس، وحياتُه، وآراءُ تلاميذه وأتباعه وأفكارهم). وهي تتضمّن الكتبَ الآتية:

١ – المنتخباتُ من أقوال كونفوشيوس وأحاديثه وأفعاله: وقد ذكرنا أنّ المؤرّخين المحدثين اعتمدوا على هذا الكتاب في استخراج حياة كونفوشيوس بصحّتها ودقّتها كما يرون.

٢ – المعرفةُ الكبرى: وهو كتابٌ منسوبٌ إلى (تسين تسيان) أحد تلامذة كونفوشيوس.

٣ – مذهبُ الوسط؛ أو حالةُ الانسجام والاتزان: وفيه بيانٌ للنّظام الذي يجبُ أنْ يسيرَ عليه الكونفوشيوسيون في أخلاقهم واتزان نفوسهم وطبيعتهم.

٤ – المنْزِ منسيوس: وهو مصلحٌ من كبار مُصلحي الصّين، أكمل مذهب

كونفوشيوس بعده بـ (١٥٠) عاما.

من هذين النوعين من الكُتُب تتكوّنُ الأصولُ والمبادئ التي يعتمدُ عليها المذهبُ الكونفوشيوسي في الإدارة والحُكْم والأخلاق والتعبُّد، على أنّ أحد الأباطرة أراد أنْ يقضي على هذه الكُتُب فأمرَ بإحراقها جميعا، لكنّ المتحمّسين للمذهب استطاعوا أنْ ينقذوا قسما من نُسَخها، وبذلك حُفظت وسلمت.

* عبادةُ السّماء:

ما كان قصدُ كونفوشيوس - كما قلنا - قصداً دينيّاً بالمعنى الذي نعرفُه عليه - أي البحث عن الإله ومعرفته ونعبُده - وثَمّ برهٍ إلى إيجاد مذهب جديد من حيث التفكّرُ الإلهي، بل أقرّ ما كان عليه دينُ الصّينيين قبلَه بوجه يتلاءمُ مع دينه وعقيدته واتجاهه المَسلكي، إذ استبقى عبادةً كانت قبلَه وهي عبادةُ السّماء (تين)، فقد كان الصّينيّون يعبُدون السّماء ويُقدّمون لها القرابين، ويرى كونفوشيوس في السّماء شيئا غير ما كان يراهُ قدماءُ الصّينيين، فهو يعتقدُها قوّة في الكون فيها قدرةٌ غيرُ قدرة الإنسان، قدرة تعملُ في سبيل العدل والخير، ولها من التعطف والرّحمة على الإنسان ما لها، وهي محبّةُ النّظام والانسجام والترتيب، وهي مثالٌ للرّحمة.

ولعلّ الباحث في مذهب كونفوشيوس - من آثاره - يستنتج:

= أنّ كونفوشيوس كان موحّدا، يرى أنّ للكون إلها واحدا، لكنّه يسامح في تقديس المظاهر الطبيعيّة والأجداد والأرواح (الجن).

= وكان كونفوشيوس يأبى تأليه الأشخاص والأفراد، ويعتقدُ أنّ ذلك تملّقا لا يستحقّونه، وكما أمرَ أنّه في سبيل نظامه الاجتماعيّ السياسيّ يرى أنّ الإمبراطورَ مفقودٌ له في السّماء - أي أنّ سلطته محدودة له الإله. فهو إذن يُمثّلُ الإله على الأرض في المبادئ الأخلاقيّة والاجتماعيّة التي يتبعُها.

هذا هو رأيُ كونفوشيوس في التوحيد، ولو أنّه لا يظهرُ واضحاً كلّ الوضوح من آثاره، فهو - كما قلنا - لا يريدُ أنْ يتعرّضَ بشكلٍ خاصٍ للإله، وخَلْقه للكون، ولقدرته. بلْ غايةُ أمرِه أنّه يتمثّلُه قدرةً فائقة فوق القدرة البشريّة، قدرة عادلة رحيمة محسنة منظّمة.

على أنّ رأيَ كونفوشيوس في الإله لم يأخذْ به العلمانيّون على حقيقته وعلى شكْله، بلْ رجعوا إلى دينهم القديم، وهو دينُ عبادة المظاهر الطبيعيّة والأرواح بلْ الأشخاص، فلم يتغيّرْ شيءٌ من هذه الناحية في دينِ الصينيّين بعد أنْ مضى زمنٌ على وفاة كونفوشيوس.

* الناحيةُ الأخلاقيّةُ والاجتماعيّةُ:

نشرعُ الآن في تفسيرِ ما أجملناه ذكرَه في النظرة العامّة عنْ ديانة كونفوشيوس، وقد ذكرنا أنّ كونفوشيوس يهتمُّ بالأخلاق والمجتمع، وقد كان في الواقع منهمكاً في وضع أسلوب يجعلُ من الإنسان شخصاً متسامياً، وقد يقصدُ بكلمة (متسامي): الشخص المستقيم المتزن الذي يقودُ الآخرين في هذا الصراط ويهذبهم سبيله.

والاعتدالُ هذا أساسٌ في كلّ شيء.

وضع كونفوشيوس مبادئ في الأخلاق لخصها في قول مشهور له، وهو: **(لا تعملْ مع الآخرين ما لا تحبُّ أنْ يعملوه معك)** في هذا المبدأ الخلاصة الخلقيّة لمبدأ أخلاقيّ متّزن يجعلُ الإنسان ينظرُ إلى غيره نظرته لنفسه.

ووضع كونفوشيوس مبادئ خمسة حدّدها بحيث تجمعُ فكرته عنْ الأخلاق وتنظيم المجتمع وهي:

١ - **الثقافة**: فالإنسانُ يجبُ أنْ يكونَ مطّلعاً على الكتب الدينيّة عارفاً بها.

٢ – **الإخلاص**: وواضحٌ من ذلك أنّه يريدُ العملَ المُخلصَ الذي ليسَ فيه نيّةٌ سيئةٌ.

٣ – **النظامُ في الحياة الشخصيّة**: فعلى الإنسان أنْ يكونَ منظّمًا في أمورِه وشؤونه نظامًا يتبعُ نسقًا معيّنًا لا اضطرابَ فيه.

٤ – **الانسجامُ في العلاقات العائليّة والاجتماعيّة**: وهي انسجامُ الشخصِ مع محيطه، وسيرُه على قواعده.

٥ – **السّلامُ العام**: وهو مبدأٌ إنسانيٌّ عامٌّ يدلُّ على الحكمة الكونفوشيّة.

* تقديسُ الأجداد:

قُلنا إنّ كونفوشيوس لم يأتِ بالجديد فيما يتعلّق بالفكرة الإلهية، وإنّما تبنّى الآراءَ القديمة فوضعها بالصّيغة النّهائيّة، فهو إذن **اطّلع على** تاريخ الصّينيّين، وعلى العقليّة الصّينيّة، وعلى طبيعة مواطنيه اطّلاعَ الحكيم، فوضع لهم مبدأً يُناسبُ عقليتهم وطبعهم ومزاجهم. ولذلك بقيَ دينُه في الصّين ثابتًا على الأيّام.

وقد وجد في آرائهم وأعمالهم ما يدلُّ دلالة تامّة على إجلال الأب والأجداد، فأقرّ ذلك الإجلال على أنّه نقوى أساسيّة يُقدّمُه الابنُ نحوَ أبيه، وهو رأسُ الفضائل عنده لما يتكوّنُ فيه من اعتراف بالجميل، وتقديم بحقّ صاحب الحقّ. ولعلّه لم يقصدْ من إجلال الأبناء لآبائهم عبادتهم لهم، بل نوعًا من التّقديس والتّبجيل الذي يرى أنّهم يستحقّونه. كما ويرى أنّ الأبناء يشعرون بهذا الإخلاص وذلك الإجلال.

ودرج الصّينيّون منذ بعد، على إقامة هيكلٍ للأجداد في كلّ بيت من البيوت، توضعُ في ذلك الهيكل أسماءُ الأجداد والآباء المتوفين، تُكتبُ على ألواح وتُقدّسُ تلك الألواحُ وتُتلى أمامها التّعاويذ، وتُقدّمُ لها القرابين، وتُبذلُ فيها المشروبات،

وذلك بمناسبة الولادات والوفيات.

ويقول الباحثون: إنّ هذه الطقوس وتلك العبادات إنّما هي تعبيرٌ عمليٌّ عن الشعور نحو الأجداد. فالأولاد مدينون لهم بالشكر لأنهم أتوا بهم لهذا العالم، ولا يلزم الأولاد بتقديس أجداد غيرهم، فهم ملزمون بمن هم أصحاب المعروف عليهم.

وكان كونفوشيوس يرى أنّ تقديس الأجداد الآخرين نوعٌ من التملّق لا جدوى منه ولا موجب له.

على أنّ الصينيين التفتوا إلى أنّ صاروا يرون عبادة الأجداد عبادة أساسيّة، وهكذا أقاموا الهياكل للأجداد عامّة، وأقاموا احتفالات وأعيادا خاصّة أمام أولئك الأجداد، فوضعوا في تلك الهياكل الألواح بأسماء عدد كبير من هم أساس الحضارة الصينيّة وأساس الفكر الصينيّ وأساس نمط المدنيّة. وضمّنوا تلك الهياكل في الطرف الشماليّ الأقصى منها عبادة كونفوشيوس نفسه، ولو رأى ذلك كونفوشيوس لامتعض وتألّم، وقد تمّ ذلك على مراحل:

= فقد أعطى الأباطرة بالتتالي لكونفوشيوس ألقابا متدرّجة، فسمّاه أحدهم (أميرا) والآخر (أستاذا أعلى) وآخر أعطاه (رتبة الكمال العظيم). و(أعظم الحكماء).

= ثمّ قرّروا عام (٥٥٥ م) أن يؤسّسوا له هيكلا في كلّ مدينة كبيرة من مدن الصين، وقرّروا أن تقدّم له القرابين وأن يُعبَد.

= ثمّ ضمّوا إليه عددا من التلاميذ ونحوا من أسماء ستّين عالما من علماء الكونفوشيّة.

وكانت عبادته خلال ما يقرب من (١٥٠٠) عام تقدّم في الصين مرّتين كلّ عام في موعد (تعادل الربيع) و(تعادل الخريف).

وهنا تأسست الجمهورية الحديثة في الصين. أبطلت عبادة كونفوشيوس بعد أن عرفت الصين الأديان الأخرى العالمية، فوجدت أنها تفعل شيئا مستغربا.

على أنه حين أبطلت عبادة كونفوشيوس عدت ذكرى ميلاده عيدا وطنيا عاما.

وأثرت بعد ذلك حكومة الصين الشعبية الشيوعية فنظرت بحذر كبير إلى الكونفوشية، وألفت من المدارس الأساسية كتب المتن الكونفوشي بما فيها الأصول الخمسة والكتب الأربعة.

الفصلُ الرّابع

من أَديانِ بلاد فارس

أولاً – الزَّرَدشتيَّة

ثانياً – المانويَّة

أولاً – الزَّرَدشتيَّة

الزَّرَدشتيَّة: دِينٌ ثنويٌ يَنتهي أمرُه بالتَّوحيد. وهذا الدِّينُ عُرِفَ في العُصور الإسْلاميَّة السابقة وحتَّى يومنا هذا بـ(المجوسيَّة). على أنَّ المَجوسيَّة ليستْ إلا تحريفاً لذلك الدِّين الأصْليِّ الذي هو دِينُ (زرَدشت).

وزرَدشت عاشَ على ما قالَه أكثرُ الباحثينَ بالتَّقريب في القرن السادس قبل الميلاد، ومنهم من يضبطُ تاريخ حياته كما يلي (٦٦٠ – ٥٨٠) ق. م، وكلُّ هذا تقريبٌ لا لمعرفة حقيقةِ تاريخه. بل يدَّعي بعضُ النَّاس أنَّ وجودَه نفسَه رَمزيٌّ، وأنَّه لم يكُنْ هناك شخصٌ اسمه (زرَدشت).

حياة زرَدشت:

انقطعَ زرَدشت لنفْسه مدَّةً من الزَّمن يتعبَّدُ ويتهجَّدُ، حتَّى إذا كان لهُ من العمر بين الثَّلاثين والأربعين قال: إنَّهُ أُوحي إليْه دِينٌ جديدٌ. وشرَعَ زرَدشت يُبشِّرُ بهذا الدِّين بيْن النَّاس بهمَّة لا تفْتُرُ. وامتدَّ به الزَّمنُ في هذا التَّبشير دون نجاحٍ كبيرٍ. ولكنَّهُ كان من حُسْنِ حظِّه أنْ اجتمعَ بملك الفُرْس واسمه (كشتسب) ولعلَّه وانَه (دارا). وجاهدَ زرَدشتُ ليُقنعَ الملكَ فلم يقْتنعْ هذا إلا بعْد أن ظهرَتْ له المُعجزةُ – على ما قيل – وهيَ: أنَّ زرَدشت أنبتَ شجرةَ أرزٍ على عتَبة قصْره، فآمنَ، ودعا النَّاسَ إلى الأخْذ بذلك الدِّين الجديد. وسارَ زرَدشت في أنحاء المملكة يُبشِّرُ بدينه. وأقامَ على ذلك نحواً من سبْعةٍ وعشرينَ عاماً لا بكلٍّ ولا بما حتَّى قُتلَ في حربٍ مَعَ أقوامٍ بمَخ، فتوفِّي وتركَ من بعْده دِينَهُ.

كتابُ الزردشتيَّة:

يقالُ إنَّ زرَدشت وضعَ كتاباً نديه اسمه (الافيستا)، على أنَّ هذا الكتاب يحوي خمسةَ أسْفارٍ مختلفة. وهو مضطربٌ في نُصوصه غيرُ مُستقيم، اندمجَتْ فيه

نصوصٌ ليست منه، وأُقحمت فيه إقحاما.

ومن الأسفار الخمسة كتابُ صلاة يحوي (الغفلس) ولعل الغفلس أقدمُ قطعة من الافستا، ولعلّ بعضهُ بقلم زرادشت نفسه.

والافستا يُدعى أيضا بـ (زندافستا) – أي تفسير القانون –.

والكتاب مكتوبٌ باللُّغة الفارسيّة القديمة، سوى النُّصوص التي أُلحقت به في عصر الساسانيين باللُّغة الفهلويّة، وهي نُصوصٌ أدبيّةٌ تفسيريّةٌ للكتاب. يتمّم بعضُ ما فيه.

مبادئ زردَشت:

إنّ الدّينَ الذي جاء به زرادشت قصد به إصلاحَ الدّين القديم، إصلاحُ دين المظاهر الطّبيعيّة الذي يُعبدُ فيه عددٌ هائلٌ من الآلهة.

= أراد زردشت أنْ يصلح هذا الدّين وأنْ يقربه من التّوحيد، وأراد أنْ يبعث فيه حياة جديدة.

= ووضع أُسسا للإصلاح الاجتماعيّ، فحضّ على العمل في الأرض والخوف من التّدنّس والابتعاد منه وتطهير النّفس وتقديسها بالصّدق وفعل الخيرات.

= ومن وصاياه وحسبا ثلاث حضّ فيها على أنْ يكونَ للإنسان نوايا حسنة، وكلام حسن، وأفعال حسنة.

فقصد إذن بدينه شيئا من التّطهّر والسّمو بالنّفس البشريّة، وإصلاحها ورفعها عن المستوى الذي كانت عليه في دين الفرس القديم.

الإلهُ في الزّردشتيّة:

أمّا نظرته التي عن الإله فليس بوسعنا أنْ نعرفها وأنْ نضبطها، فقد دخل عليها كثيرٌ من الأشياء شوّهتها وأبعدتها عمّا وضعها عليه زردشت. ولم يتّفقْ

الباحثون على الدِّين الذي أتى به زرادشت، بل اختلفوا فيه اختلافاً كبيراً. ولم تنته إلينا كتاباته صحيحة موثّقة، بل مضى زمنٌ طويلٌ عليها جهلت فيه، ثم جمعت بعد قرون عديدة على غير حقيقتها الأولى. وعلى ذلك فلا ينتظر منّا أن نصل إلى فكرة دقيقة عن دين زرادشت. وما بين أيدينا يقرّب فكرته، ولهذا فإنّنا سنعرض هذه الفكرة عرضاً عامّاً لا على أنها حقيقة تاريخيّة، بل هو ما انتهت إليه أفكار المؤرّخين المُحدثين.

فعلى رأيهم أوّل رأي بعضهم أنّ زرادشت كان يعتقد أنّنا وجد منذ الأزل إلهان:

أحدهما: (أهورا مزده) ويسمى أيضاً (هرمز) أي (العلم السامي).

والإله الآخر: (أهرمان).

عمد (هرمز) إلى خلق النّور والحياة، فغار منه (أهرمان) وخلق الشّر وجهنّم، ردّاً على خصمه، واستعر القتال بين الإلهين، وهو قتال سينتهي يوماً.

ثم إنّ (هرمز) خلق خصالاً ستّة هم وزراؤه، وهي (الخير)، والخصال الحسنة، والعدل، والملك الإلهيّ النقيّ الصالح، والعفو، والخلود).

وعاد (أهرمان) فخلق مقابل ذلك خصالاً شرّيرة، هم وزراؤه، وهي: (القساوة، والغضب، والذنوب، والسّحر، ... وغير ذلك.

واستمرّ القتال بين المبدأين (مبدأ الخير، ومبدأ الشر) ثلاثة آلاف سنة.

ثم خلق (هرمز) الأرض والإنسان والحيوان، فخلق (أهرمان) الشياطين، وامتدّ ذلك ثلاثة آلاف سنة.

وفي الدّورة الثّالثة - وهي تمتدّ ثلاثة آلاف سنة - وجد زرادشت وبشّر بدينه، وسيأتي بعده مُصلحون ثلاثة.

ثم نبدأ دورة رابعة ينتصر فيها (هرمز) على (أهرمان) فيقضي على كلّ

الشرور وتسود الخيرات، ولا يبقى في العالم إلا ربٌّ واحدٌ، والناسُ على الخصال ونقيض به.

على أنّه ينبغي للناس أنْ يساعدوا (هرمز) في القضاء على الشرّ. فللإنسان الدور في ذلك الصراع بين الخير والشرّ، والإنسانُ مدعو إلى أنْ يحارب إلى جانب الخير، وفي ذلك عونٌ لهرمز في القضاء على الشرّ.

وهكذا نرى أنّ هذه الديانة ليندرجُ ثنويّة (فيها الخيرُ وفيها الشرُّ) متقابلان ولكنّها تنتهي وحدانيّة توحيديّة، إذ يتغلّبُ الخيرُ على الشرّ.

ونعلم زردشت وجد قبل عصرٍ، عندما من الآلهة لعبدَ. فحوّل العقيدة بها بأنْ جعلها أفكاراً لا آلهة ذات أشكال. وقسّمها إلى قسمين (قسم خيّر، وقسم شرّير) بحيث يقضي الخيرُ على الشرّير. ولعله لم يكنْ في ذهن زردشت أنّ الخصال التي خلقها (هرمز، وأهرمان) هي آلهة إنما هي تمثيل للاتجاهات، فأتى من بعده فجعلوها آلهة يعبدونها. ومن هذه الآلهة إنّهُ أسقطهُ زردشت عن مكانته القديمة وهو (كمترا) هذا الربُّ اعتقد الناس بعد زردشت في عصر الساسانيين أنّهُ (إله النور) فجعل إلها حقيقيا، وقيل إنّهُ ضحّى ثورا وخلق بدمه الكائنات، ولذلك يُضحّى بثورٍ عبادةً له.

كان زردشت على ما يُقالُ قد رأى أنّ الربَّ يُمكنُ تمثيله بشكلٍ جواهر طبيعيّة خالصة أعمها النار، وأتى الكهنة فأحدثوا من ذلك عبادة النار. وكان أن اشتهرت ديانةُ زردشت بالمجوسيّة أي عبادة النار. وعبادةُ النار إنما أُحدثها في دين زردشت تطهير الشيطان من التدنس باعتبارها من الجواهر الإلهية المخلوقة. ولما عبدت بعد ذلك أحدثت لها هياكل ووضع في كلّ هيكل نار تتقد ولا تنطفئ أبداً. وكان للكهنة الذين يُقيمون في المعابد بعد زردشت أثر كبير فهم الحامون لدينه وهم المظهرون لعبادته ووصل أثرهم إلى الحكم نفسه فكانوا يوجهون الملوك.

اليومُ الآخر عندَ الزَّردشتيَّة:

النَّاسُ في الزردشتيَّة مُحاسبون على أفعالهم، وستوزن تلك الأفعالُ في اليوم الآخر وزنا دقيقا، وهي مسجلة تسجيلا تامًا، ويمرُّ الإنسانُ على طريق تحته جهنَّم، فإنْ كان الذنبُ صاحبَ خيرات وجد الطريق عريضا، وانتقل منه إلى عالم النُّور، أمَّا إذا كانَ صاحبَ شرور فإنَّه يجدُ طريقَهُ ضيِّقا حدًّا فيقعُ منه إلى جهنَّم، وإذا توازنت أعمالُه الطيِّبةُ في أعماله السَّيئة وجب عليه أنْ يمرَّ بالمَطهر، وأنْ يغسل ذنوبه ثمَّ ينتقل إلى عالم النُّور.

الزردشتيَّةُ في العصرِ الحاضرِ:

ذكرنا أنَّ الدِّين الزرادشتي انتقلَ إلى عصرٍ كان فيه مُظلمًا ثم يُعرف، ومجهولا مخفيًا، وامتدَّ هذا العصرُ وقتًا ولعلَّه بلغ أربعةً أو خمسةً من القرون، ثمَّ أعاد السَّاسانيُّون هذا الدِّين، وترجموا (الافستا) إلى الفهلويَّة، وأسَّسوا هياكلَ النِّيران في كلِّ مدينة، ووضعوا عليها الحفظة، وامتدَّ الأمرُ إلى ظهور الإسلام وعدَّ رواقه على أماكن انتشار الزَّردشتيَّة، فبدأت الزردشتيَّةُ بالانحسار وعبادةُ النَّار تتلاشى، وخاصَّة في زمن المتوكِّل العبَّاسيِّ. فانتقلَ بعضُ المتعبِّدين لها مُهاجرين إلى بلاد الهند، وفيها اليوم منهُم عددٌ يُدعون بـ(الباريسين) أي: الفرس القدماء.

ثانياً – المانويَّة

نقدَّم معنا أنَّ الزَّردشتيَّة في بلاد فارس، ومن المفيد معرفةُ المانوية التي كان لها من الأثر في حياة الفرس ما يُشابه أثر الزَّردشتيَّة، وكانت تُرادفُ عند المُسلمين كلمة (الزَّندقة) التي كانت تُطلقُ عليها خاصَّةً قبلَ أن تُطلقَ على الإلحاد عامَّة.

المانويَّة مزيجٌ من الدِّيانات المختلفة: (الزَّردشتيَّة – البوذيَّة – المسيحيَّة) ومؤسسها (ماني) ولد سنة (٢١٦ م) في عائلة متزهِّدة متمسِّكة، تنتسبُ إلى يوحنَّا

المَعْمدان.

حياة ماني:

وُلد في مدينة قريبة من مكان بغداد الحالي، ولمّا بلغ السادسة والعشرين من العمر رأى أنّهُ أُوحي إليه فأخذ يُبشّرُ بدعوته، وأُعجبَ (سابور الأوّل) بدينه واعتنقه، لكنّ الكهنة حرّضوه على هذا الدّين الجديد فأبعد ماني، فسارَ هذا بجوبُ آسيا حتّى بلغ الهند وتجاوز حُدودَ الصّين مُبشّرًا بدينه، ولمّا استولى على المُلك (بهرام الأوّل)، ظنّ ماني أنّهُ يستطيعُ العودة إلى بلاده بأمان، فعاد، لكنّهُ استُقبِلَ بمعارضة شديدة من الكهنة، وأُلقي في السّجن، فبقي فيه حتّى مات.

على أنّه لم تتقبّل جذوةُ دينه، فما لبث أن انتشر من أقصى العالم إلى أقصاه، فقد كان دُعاته متحمّسين حماسة شديدة. وكانت أفكارُ هذا الدّين تجولُ في أذهان النّاس آنذاك.

غير أنّ الاضطهاد ما زال يُلاحقُه في كُلّ مكان، فقد اضطهد، أباطرة القسطنطينية، وبابوات روما وغيرهم.

واستمرت المانوية تبثُّ تعاليمها لا تني عن ذلك مدّة ألف سنة، تدخلُ في تفرّق المنشقّة والمتزندقة فتؤثّر فيها وتوجّهها، وقد دخلت المانوية في بلاد الإسلام ونفثت أثرها في بعض المذاهب المبتدعة، فردّ عليها المتكلّمون، حتّى امحى أثرُها بالحجج والبراهين.

ديانة ماني:

المانوية دينٌ ثنويٌّ بُني على الصّراع بين قوّتين متناقضتين.

ويدّعي مؤسّسهُ أنّهُ أُوحي إليه من عند الله، وأنّهُ المنقذُ الذي نصّ عليه المسيحُ، وأنّهُ آخرُ الأنبياء. ويدّعي أنّ دينه لا يختلف عن أديان الرّسُل الذين